روايات الهلال

ياقلبى لاتحزن

منال القاضى

إذا أعجبك الكتاب، فرجاءً حاول شراء النسخة الورقية
تذكر أن الكتاب العرب معترون والكل يستوطي حيطهم
دعمنا لهم يضمن إستمرار عطائهم
(أبو عبدو)

http://abuabdoalbagl.blogspot.com
أبو عبدو البغل

يا قلبى لا تحــزن

بقلم :

منال القاضى

دار الهلال

الغلاف والرسوم الداخلية للفنان :
حلمى التونى

الفصل الأول

البيــــت

(١)

هندسة البيت سحرية كأنها داخل حلم ، قادها حلمها الآن إلى باب خشبى شاهدت مثله فى كتاب صديقها يوزوكى (عين يوزوكى الشقية) ، استوقفه أثناء رحلة صحفية قام بها إلى استانبول ، أو كما يقول استوقف عدسة الكاميرا التى لا تفارقه . ضم الكتاب صورا لبوابات أخرى ، وجوه قلاع ، ظلال وجدها أكثر تعبيرا من أصحابها . كان لا يلتقط صور الأشياء كما تألفها يهمه أكثر الجانب الخفى ، الداخل هو الصورة الحقيقية .

لم تسأله عن سر لقطاته وهل تؤثر فيها بفضل الموهبة فقط ودون أى خدعة تكنولوجية ، والأهم لماذا بدأ كتابه بإهداء لعائلة ابيه (مويوزو) ولم يهده إليها ، أليس ما بينهما حقيقى وقوى .... ليس حبا ، ولكنه أقوى من الوهم الذى يربطه بعائلة تعيش فى اليابان ولم يرها ولا مرة .

متى يكف يوزوكى عن الوهم ....

ولكن ما الذى يخفيه هذا الباب ؟

لم تتمكن من قراءة الكتابة المحفورة أعلاه ، أرجعت فشلها إلى تداخل الحروف ، لا ضعفها فى العربية التى تعلمتها حديثا ، لم تكن مستعدة لأى شعور بالاحباط .

دفعت ليز الباب قبل أن تتحول المسألة إلى تحد وتقضى بقية عمرها أمام الباب حتى تنفك الشفرة ، كانت تعرف نفسها «لا للفشل» .

الفشل يرهقها ويشعرها أنها باعوضة ، يمكن أن تفقد حياتها تحت مضرب باعوض دون أن يشعر بها أحد أو تعيش طريدة المضارب والمبيدات الباعوضية .

تجاوزت الباب ، لم تندهش مما شاهدته أو تسأل إن كان حلمها مستمرا أم هو واقعها بغرائبه مرة أخرى .

(٢)

لم تكن البـحـيـرة بهـذا الوضـوح فى الصـور ، ولا التـمـسـاح المرمرى الذى يغمض عينيه ويرفع ذيله فى منتصفـها كأنما تثيره ألوان الحـديقة وروائحـها ، فى الماضى كان هناك رذاذ ينبـثق من تكشيرته ، جف الآن .

شجرة السنط أكبر وأكثر كآبة مما عكسته الصور .

كانت جدتهـا المصرية جالسـة تحتـهـا تعـزف على آلـة وترية غريبة ، تتوقف عن العزف ، تفرك رأسها ، تنظر فوق وتحـت حـيث البـحـيرة وفى عـينى التـمسـاح ، تهـز رأسـهـا فى يأس مـن عـودة الإلهـام الهارب ، ثم فـجـأة ينبـعث لحن يسـكر .... مثل تثاؤب شـيطان يعـرض مـواهبه خـلال الجدة العجوز .

عمرها سر .. حتى باروخ لا يعرفه .... ولدت عام ١٨٩٠ قبل ذلك أو بعده .... يعدل نظارته «لا تسألينى اعتبريه لغزا كونيا» .

تركت مكية الآلة بعد أن عصرت قريحتها وتأكدت من عدم وجود

نغمة شاردة وحين اكتشفت وجود ليز لم تندهش ، اقتربت منها فى رشاقة لا تثقلها عمر أو ذكرى وكان صوتها متحررا من القوانين والتوقعات البشرية ، قليلون أزليون مثلها ومن حقها ارتجال قانونها الخاص .

عرفتها دون المحاولات التى يبذلها العجائز عادة فى التذكر ، المرة الوحيدة التى التقيا فيها كانت منذ سنوات بعيدة ، يوم مسدت لها مكية جسدها الرضيع بخلطة سرية ومحسوبة من العطور ، لتمنحها أحلام لا تخطر على بال .

استنادا إلى هذا اللقاء الدافئ والوحيد ، انطلقت مكية تحكى لها عن لحظات الحب والصمت والألم التى مرت بها ، لم تكن خائفة من الموت ولكن أن تموت بلا ذكرى .... لا وقت .. ليس أمامها إلا الكلام ، تريد أن تسجل كل ما تخاف نسيانه فى ذاكرة حفيدتها الطازجة .... بهذا يمكنها أن تبقى ولا تموت .

حلمي التوني ٢٠٠٥

(٣)

صعدا سلما وسارا فى ردهة طويلة ، كانت جدتها المصرية تنظر هنا وهناك وتنحنى لتلتقط أشياء ليست موجودة .

وصلا أخيرا إلى غرفة مليئة بألوان ضبابية ورسومات لأطفال عرايا لهم أجنحة ملائكة تزين الجدران والسقف .

توقفا أمام صورة معلقة قريبا من الفراش لها إطار من الصدف والفضة . أشارت مكية إلى امرأة حلوة تحمل رضيعا وقالت «أمك جيزيل تحملك وعمرك أيام» .

على يمينها وقف مهرج عجوز ينفخ فى نايه وكله ثقة فى لحنه المدهش الذى ألفه خصيصا للرضيع قالت مكية «لا أذكر اسمه .... أظنه أحد صبيان زبيبة العالمة أحضره شيخول من أجل السبوع» .

وهناك ظل آخر فى خلفية الصورة ينظر فى فضول إلى ما

تحمله جيزيل عرفته مكية .

«الخصى شيخول»

تركتها لتستريح ، وبعد محاولات فاشلة للنوم قامت ليز وتجولت فى أنحاء الغرفة ، وجدت نفسها أمام الصورة . أخذت نفسا عميقا ، أرادت أن تستعيد طعم لحظاتها الأولى فى الدنيا كان الهواء مليئا بالأسرار .

منذ ثلاثين عاما كلف باروخ جيزيل بالمهمة وأعطاها هى الأخرى كتاب موسى هس (روما وأورشاليم) مؤكدا أنها منهم ، وانتماؤها لهم ، هم عائلتها الكبيرة ، عائلتها الحقيقية ، ووعدها أن يعترف أمام الجميع بأبوته لأنه يعرف كم تكره وحدتها وتشتاق إلى حياة الأسرة .

رتب كل شئ بدقة بداية من المنحة التى حصل عليها (على) لدراسة الطب النفسى فى أمريكا وحتى لقاءه بها لأول مرة فى نيويورك ، ولكن جيزيل خذلته وبدلا من أن تنجز المهمة وقعت فى الحب .

كانت هشة ووحيدة وحاجتها إلى على أكبر من وعود باروخ . كما أن باروخ لم يعاملها أبدا كأب ، كان أبرد من لوح ثلج ويعتبر وجودها البرهان الوحيد على ضعفه أمام المرأة التى أحبها يوما وهجرته .

ولكن ليز ليست جيزيل ، كان يعرف أن حفيدته مختلفة ولا يمكن أن ترتكب حماقات أمها فليس لديها قلب وأكبر دليل هو حياتها التى تشبه الآلة، تقمصت ليز مظهر القوية ، انتزعت اعجابها به بصرف النظر عن كونها حفيدته ، أشعرته أن دماءها منه وحده ، لا من أبويها ولا من تلك الزنجية الحلوة التى أوقعته فى الحب .

كان تحاملها على أبويها جواز مرور إلى ثقته ، لم يكن يعرف أن حفيدته تنتابها أحيانا كل أعراض الحب ولكن دون أن تملك جرأة الاقدام عليه ، الحب قضى على أمها وجعلها تمضى حياتها محاطة بأطباء ومعالجين نفسيين وممرضات مدربات على التعامل مع نوبات الهياج ،. حياة الآلة أفضل ، قد تقنعه بالاعتراف بها واعطائها جذور ، قليلون يعرفون أنها حفيدته ، لى لى الطاهية ، يوزوكى ، الآخرون يعتقدون أنها عشيقة الملياردير العجوز ذى الجنسيات المتعددة ، الذى يفخر بأمريكيته مادامت أمريكا هى الأقوى ، ويخفى يهوديته حين لا تكون ورقة رابحة ، يعتنق المسيحية ، البوذية أو يكون بلا ديانة كما تقتضى كل صفقة ووفق البلد التى يغزوها بمشروعاته .

دارت ليز فى الغرفة لتهدئ انفعالاتها . تريد أن تكون حفيدة رسمية له ، حتى هذه اللحظة تعتبر وجودها شبحيا فى هذا العالم . الغرفة التى دفعتها إليها جدتها الأثرية لا تحكى عن أية جذور ،

لا علاقة بينها وبين تلك النائمة فى وداعة داخل الأقمطة .

ثم إنها مجرد لحظة ، حظيت فيها باهتمام ثلاثة ، اثنان فارقا العالم ، ولن تعرفهما ابدا ، وأمها جيزيل لا تفيق من غيبوبة جنونها وهذيانها ولو للحظة كى تضمها كما فعلت فى الصورة .

ولكن هل وجود شجرة سنط يعتبر دليلا كافيا ؟

حين أخبرها باروخ بالأمر ، وأراها صور البيت المصمم على الطريقة الشرقية ، بما فى ذلك حديقته الداخلية وشجرة السنط ، تيقنت أن جينات الجنون سرت منه إلى جيزيل المسكينة ، وقد تصل إليها فى أى لحظة وتفجرها .

أين هو الآن؟ .... يتنقل بين أعماله المنتشرة كخلايا سرطانية فى كل أنحاء العالم ، ينشئ شركة أخرى عابرة للقارات ، يضارب فى احدى البورصات ، يتأمل ماسة نادرة ويساوم على ثمنها !

مقالات كثيرة تناولته فى صحف عالمية بوصفه نصاب يجيد اللعب بالتكنولوجيا والمصطلحات العصرية وربطت بينه وبين كوارث اقتصادية وانقلابات عسكرية ومحاولات اغتيال لزعماء وطنيين . وأخرى اعتبرته رجل الخير الذى يمول مشروعا بحثيا يهدف إلى تأكيد وجود الله .

كان يعلق على مهاجميه بنظرة مؤثرة من خلف نظارته ....

لا يعقل أن تنسب كل مصائب الآخرين إليه ، ويسألها ... هل هى قادرة على تحمل مساوئ اسم باروخ «أثبتى لى أولا مدى قوتك، إستعيدى البيت لأصحابه التاريخيين» .

ثم إنه لا يريد أن يظلم أحدا ولا حتى مكية ، لن يكون البيت بلا ثمن ، ومكية من حقها أن تجرب سحر المال حتى بعد أن جاوزت المائة ، ومن يدري فقد يكافئها الله بالخلود .

(٤)

مر الوقت وليز تنتقل بين ممرات البيت وحجراته العلوية ، تنظر من المشربيات التى تزين الغرف والقاعات إلى الشجرة والتمساح والبحيرة .

وجدت نفسها على قمة سلم حجرى .... هل هو بداية مغامرة شرقية !

نزلت فى حذر وهى تتوقع فى النهاية سردابا خفيا أو مصباحا سحريا وضحكت حين اكتشفت انه مجرد طريق يؤدى إلى الحديقة.

لمحت ذيل التمساح المرمرى ، بدا مثل قطعة ثلج طافية ، سرت داخلها رجفة أشعرتها بالوحدة أكثر . ولكن لا وقت لهذا ، من الأفضل أن تعاين الشجرة عن قرب لتتأكد من مزاعم باروخ ،

ولتجد المصداقية لمهمتها .

شجرة خالية من الأغصان وكئيبة فهل هذا دليل ؟

يقول إنها فقدت أغصانها حزنا لأن يهودياً ارتكب الخطيئة أسفلها ذات يوم بعيد .

جلست مستندة إلى جذعها تفكر فى طريقة تحصل بها على البيت . غرزت يدها فى التراب الندى وفجأة اصطدمت أصابعها بشئ له برودة المعدن.

ورغم أن عصر المعجزات ولى والشجرة لا تختلف فى نظرها عن أى شجرة سنط أخرى ، لكنها شعرت بالإثارة .

بدأت الحفر حتى أخرجت صندوقا معدنيا صغيرا ، فتحته بسرعة وقد تملكها الفضول لتجد داخله بردية مطوية ...... تذكرت كلام باروخ عن رسائل موسى التى كتبها إلى فرعون هل هى احدى الرسائل ....

الحروف مائلة مرتعشة ، عطر غامض يفوح من بين السطور ، ولكن الكتابة عربية .... ابتسمت بعد أن أنهت السطر الأول ، ما وجدته مجرد رسالة حب .

واصلت القراءة فى تأن ومتعة وهى مستلقية فوق الحشائش .

كانت تريد أن تلمس بنفسها مدى تواصلها مع اللغة ......

تؤمن أن للغة روحا .... ، شيئا أعمق من المفردات وتصاريف الأفعال .

تهجت اسم الحبيبة فى بطء (ز ى ر ى ج ا) .... اسم وحشى راقص ، لابد أن صاحبته ساحرة .

كاتب الرسالة اسمه شيخول . تذكرته ، رأته فى الصورة ، كان يغمض عينيه أمام الفلاش كمن ينظر داخله فى عينى حبيبته .

(٥)

كانت ليز مستغرقة فى تأمل الصندوق والرسالة ، حتى أن صوت (مكية) بدا وكأنه مفاجأة أخرى يخفيها الصندوق ، ومضى وقت حتى عرفت أنها جدتها التى تكلمها لا الصندوق .

أخبرتها مكية أن الرسالة واحدة من مئات كتبتها لآخرين ، وأنه عبدالرحمن الذى علمها فلسفة كتابة الرسائل ، كما علمها الطب ، لا تذكر أيهما قبل الآخر ، تظنه الطب أولا . كانت صغيرة حين قلبت معه كتب التشريح القديمة ، توالت الصور ولا تعليق منه ، ثم حكى لها قصة هؤلاء الموتى ، فمنذ قرون استكشف أجسادهم أطباء وفنانون فى دروس التشريح السرية .

كانت جريمة ، تبادلوا المشارط فى قلق ، داروا حول أنفسهم ، أوصدوا الأبواب بمزاليج ضخمة خوفا من جواسيس السلطة . تعاطفت مكية أكثر مع الذين فشلوا فماتوا من أمراض مجهولة أو وجدوا أنفسهم داخل سجون العصور الوسطى الكئيبة قبل أن

يعرفوا حقيقة الجسد البشرى .

قلبت مكية الأطالس مرات بعد ذلك ، ليسوا موتى ، رأتهم أحرارا داخل الرسم ، فى نزهات لا تنتهى بين مرتفعات شكلتها الصخور والنباتات الغامضة . انحنى لها أحدهم فى بساطة ، عارضا محتويات جمجمته ، وهمس لها عملاق فى صفحة تالية بكلمة مستعرضا عضلاته المشرحة بدقة ، غير مهتم ببيوت وغابات ظهرت فى خلفية الرسم ، ملائكة صغيرة أسفل الصفحة أضحكها ما قاله ، غمزت لها وللعملاق ثم انهمكت فى ثقب جماجم وكى جروح وتشريح حيوانات .

وبعد عدة صفحات استوقفها أطفال استلقت هياكلهم فوق الحشائش وعلى مقاعد وثيرة فى بهو قصر أثرى ، سألوها عن أبيهم المرسوم فى كتاب آخر معاصر ، ثم استداروا يلعبون .

افتقد الموت رهبته فى هذه الأطالس المشروحة بحروف قوطية متداخلة وبدا شكلا آخر للبهجة .

وخلال شهور عرفها عبد الرحمن أكثر بالموت حين اصطحبها إلى الصعيد مساعدا له . قاصدا قصر باشا لم يمهله القدر لوصولهما ، فمات مستندا إلى تمثال مرمرى ، وفى فمه قطعة حلوى .

ضبطت نفسها معجبة بعباءته الحريرية وخاتمه الذهبى الكبير ،

والخدم من حوله بسراويل خضراء وأحذية فضية وقلنسوات حمراء ، وولولة تشبه هديل حمائم مفزوعة .

لم تستوعب وقتها دروس عبد الرحمن عن سبب الموت وعلاماته ، كانت مشغولة بالموت نفسه .

استأذنا بعد دفن الباشا بساعات ، أركبهم خادم حبشي على ظهر حمار وصحبهما إلى المحطة .

كان سكان الأكواخ يهللون فى الأزقة والغيطان فرحين بموت الباشا ، لا يوقفهم شيء ولا تكشيرة الخادم ونظراته ، فسيان الموت جوعا أو بسبب التخمة .

لقد خططوا لميتته منذ زمن ، بشحوبهم ، وعيونهم المذعورة ، وحياتهم التى تشبه حياة فأر .

انحشروا فى أكواخهم تاركين الأرض الواسعة والوفرة له .

رأوه يتعثر فى شحومه وجواهره ومآدبه وذهبه وفضته وجواريه وغلمانه وأصدافه ومقتنيات من كل لون ، حتى أثقل كل هذا عليه ومات .

تأكدت مكية من هذا بعد أن عاشت طويلا .

(٦)

صعدت ليز إلى غرفتها تاركة لمكية مهمة إعادة العلبة الفضية مكانها ، كى تقرأها زيريجا كلما شاعت فقد جعلها الموت حرة ترفرف حيث تريد .

كانت الرسالة المائة فى حياتها ككاتبة رسائل ، تذكرت مكية تفاصيل ما حدث منذ تركت بردية ايبرز وحتى ذهابها إلى شيخول لتريحه من همومه .

كانت فى المكتبة تحفظ أمراض البطن الخمسة عشر التى تحويها البردية . نظرت من كوة صغيرة تطل على الحديقة . وجدته وحيدا يدور حول نفسه ويتألم .

عبد الرحمن علمها سمات من يستحق أن تكتب له رسالة.

١ - من لا يجيد الكتابة .

٢ - من يجيد الكتابة ولكنه يعجز عن وصف مشاعره .

٣ – من يجيد الكتابة والتعبير عن نفسه ولكنه يحتاج آخر يشاركه لحظاته الخاصة.

كان شيخول يحتاج شريكا لأحزانه .

فتحت صوان البرديات تفننت فى اختيار الأحبار والأقلام وحين تحدث إليها ، اجتهدت فى اختيار الجمل الأنسب والأرق .

لم يدهشها أنه أحب وهو الخصى حارس الحريم الذى لا يغار منه الرجال ، ولكن قصته تبدأ قبل ذلك قبل أن يختطفه تجار الرقيق ويخصوه فى أسيوط .

كان أبوه كاهن قبيلة افريقية بعيدة ويعده لخلافته ، الحب بدد الخطط المعدة لمستقبله وأوقعه فى العبودية .. ليس الحب ، زيريجا لاذنب لها .

هى رفيقة ألعابه وطفولته ، طاردا سويا سناجب وفئران برية ، تراشقا برذاذ الماء المتفجر من بين صخور الجبل ، توغلا سويا داخل الغابة ، وهناك علمته لغة الطيور ، الحيوانات المفترسة ، الأيائل ، الزواحف ، الحشرات ، ما تعنيه التحيات المتبادلة بين أهل الغابة ، العناق ، المعارك ، المطاردات .. شرحت له كيف يفرق بين صيحات التحذير ، الفرح ، الخوف لطائر ما أو حيوان متخف.

صارت زيريجا حديث القبيلة لجمالها ومواهبها العديدة . ابتكرت اغانى ساحرة ، جعلت لكل من أصوات الغابة مكان فى

أغنيتها .. لا فرق بين المفترس والفريسة ، الكل شركاء فى اللحن .

ولأنها أكثر مما تجود به الحياة .. أى حياة ، اختارها زعماء القبيلة قربانا لأرواح الأجداد حين تأخر هطول المطر .

ابتسامات خبيثة ، فرحة، تبادلتها العجائز والقبيحات . همسن فى أذنيها برسائل مطولة للأجداد .

تهلل الرجال أيضا . فوجودها يشعرهم بالعجز . لن تكون لأى منهم، فلو اختارت أحدهم لن يسمح الآخرون . لم يحملوها أى رسائل للأسلاف . غبطوا الأسلاف عليها وتخيلوهم فى جنتهم البعيدة يعدون العدة لاستقبالها .

ألبسوها ثوبا من عشرة ألوان ، علقوا حول عنقها التمائم وعقود الخرز الملون والكهرمان .

دقت الطبول ، رقص الجميع حول النيران .. لا أحد يسأل عن شعوره وهى تأخذ مكانها داخل المحرقة .

الأقنعة التى ارتدوها سميكة وملونة ، الصخب هائل ، الأذرع مرتفعة فى الهواء ، الطبول تدق والأجساد تدور .

شيخول وحده دون قناع . بكى .. أظلم كل شىء من حوله .

أفاق ليجدها جواره ، مسحت جبهته بطرف ثوبها .

فكر «لم تحترق» .

أشارت له كى يتبعها داخل الغابة لتخبره بالسر .

ابتعدا .. وخفت صوت الطبول ، التفتت له .. أشرق وجهها بابتسامة وهمست له «اذكرنى» .

اقتربوا منه فى تلك اللحظة . قيدوه وحملوه على ظهر بغلة عبر طرق متعرجة .

لم يستوعب أنه صار عبدا . كان قلقا على مصير زيريجا ولا يتصور أنها اختفت من دنياه إلى الأبد ولم يتبق منها سوى رمادها وذكراها .

(٧)

أرسلت ليز لصديقها يوزوكى انطباعاتها الأولى عن الشرق بالبريد الألكترونى . كما بعثت له صورة التقطتها لمكية وهى تعزف على آلتها العجيبة .

تعرفت على يوزوكى أثناء طفولتها فى حفل أقامته أمه ذات الجذور الهندية على شرف جدها الأمريكى باروخ . حضره جمع من متسولى أمريكا وذوى العاهات والمتخلفين عقليا وممثلى الجماعات الإثنية والزنوج والشواذ والمومسات والعاطلين وكل منبوذ. كانت أمه رئيسة جمعية (أرفع رأسك عاليا) التى أسستها خصيصا من أجل الأقليات المحرومة من حقها فى حياة طبيعية سعيدة .

ارتدى الجميع ثياب السهرة التى تبرع بثمنها باروخ ووزعتها رئيسة الجمعية السيدة شارميلا .

كان يوزوكى يتخفى من كل ذلك تحت إحدى الطاولات العامرة بلحم الطاووس والشمبانيا وأطباق الكريز والفواجرا وكل الأصناف التى تمنح الثقة والقدرة على رفع الرأس عاليا .

تسللت ليز إليه ، راقبا سويا السيقان المليئة بالندبات والجروح ، ترقص مرتبكة على موسيقى الروك أند رول .

تخلل الحفل خطبة طويلة للسيدة شارميلا تحدثت فيها عن أهداف الجمعية وتكلمت عن حياتها فى الهند كمنبوذة تنتمى إلى الپاريا . عاشت طفولة صعبة بين حواة ، بهلوانات ، كناسين ، حلاقين وكل ذى مهنة اعتبرت وفق القانون البرهمى قليلة الشأن ..

«تصوروا ملامستى لأى شىء نجاسة وسقوط ظلى على أحد السادة يستوجب منه الاغتسال والتطهر» .

عاشت طفولتها مختفية كى لا تزعج السادة بظلها ، تتأمل جمال بلادها وتسأل ألا يحق لها التمتع بكل هذا والانتماء إليه كإنسانة لها كرامة . وفى النهاية تركت بلادها لتحتفظ بكرامتها «ووجدت نفسى فى جمعية ارفع رأسك عاليا» .

شكرت السيد باروخ على مساهماته للجمعية وإنسانيته التى لاحد لها وأهدته درع الجمعية أثناء تبرعه أمام الصحفيين وكاميرات التليفزيون بشيك يقال إن أصفاره تجاوزت الستة .

تكلم باروخ عن سنوات الجيتو ، السور العالى ذى الاثنين

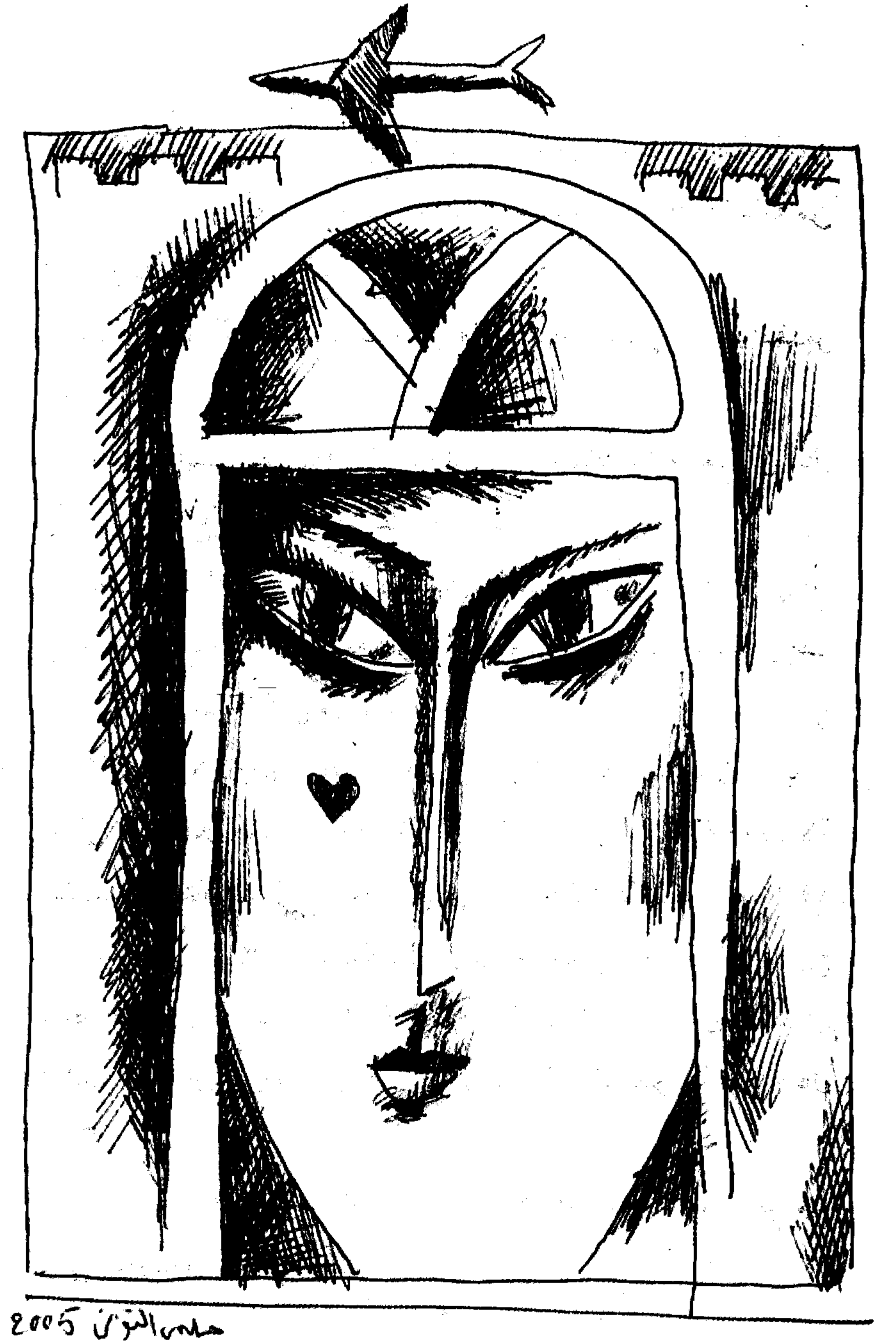
حلمي التوني 2005

والعشرين بوابة ، الحراس الذين يشبهون شياطين هاربة من الجحيم ، أفران الغاز ، الموت ، تلال الجماجم ، الأشلاء ونجاته من الموت بإعجوبة .

سأل أحد الصحفيين فأجاب «لقد عانيت وعلى العالم تقدير معاناتى» .

وصرح أحد المتسولين لصحفى آخر قائلا ، أنه بعد أن أكل وأحس بالشبع لم يعد يحقد على المجتمع .

عقب أحد الزنوج «اشكر السيد والسيدة» فهو يشعر الآن أن لونه لم يعد عقبة بل هو يفخر بكونه نجرو ، يحضر حفلة رائعة ويتحدث للصحافة كأى مشهور .

كان يوزوكى وليز يراقبان كل هذا ، كأنه فيلم كارتون مثير . صارا صديقين منذ هذه اللحظة . اكتشفا أشياء كثيرة مشتركة بينهما ، وظلا يتذكران هذا اليوم ويضحكان لأن جمعية ارفع رأسك عاليا انهارت بسرعة . ففى نهاية الحفل وبعد ذهاب باروخ والصحفيين والكاميرات التليفزيونية ، طلبت شارميلا من المدعوين إعادة الملابس لأن محرومين آخرين سوف يلبسونها فى حفل مماثل.

ردوها فى الحال فلم يشعروا أبدا بملكيتهم لها ولا لشخصياتهم التى تقمصوها طوال الحفل .

ولكنهم أحسوا بخسارتهم وهم يخلعون الملابس وبالضآلة والخجل من شخصياتهم الحقيقية . وفي اليوم التالي تجمهروا أمام مقر الجمعية . كان المتسول الذي أدلى بحديث صحفي أول الحضور وفي يده صحيفة الولاية وقد شغلت صورته نصف صفحتها الثالثة ، وداخله تصميم ألا يعود المسكين الذي كانه بعد أن نقلته الشهرة إلى قلب الأحداث .

علا صوته تبعه آخرون وقد جعلهم ملمس الحرير ، الطعام الفاخر ، الشراب اللذيذ أكثر نقمة وضراوة .

اقتحموا مقر الجمعية ، نهبوا الطاولات ، المقاعد ، الستائر ، النوافذ ، عثروا على ثيابهم محفوظة داخل دواليب كبيرة ، قاموا بتفكيكها وضمها إلى غنائمهم بعد أن أخذ كل منهم الثوب الذي يخصه . ونجت شارميلا من باب خلفي بأعجوبة .

كان يوزوكي يحب أمه ويكرهها ، فحياتها سلسلة من الهزائم والأكاذيب . كان على ثقة أنها عجلت بوصول أبيه إلى نقطة اللا عودة ، فانتحر على طريقة الساموراي بعد أن رسم قريته اليابانية في لوحة كبيرة ، باعتها أمه بسعر خرافي بعد وفاته .

(٨)

لابد أن لها اسما سريا ، نصف لا تعرفه ، نبهها يوزوكى إلى ذلك منذ تحدثا عن أبيها العربى .

قضت ليال طويلة بين مئات الأسماء العربية تحاول تخمينه .

ليست دعجاء سوداء العينين ، ولا هيفاء طويلة القامة ، ولن تكون أبدا غادة بوجهها المفزوع .

الأسماء المركبة أثارت خيالها وجسدت لها الحياة التى تود الهروب إليها. أعجبها أن تكون شجرة الدر ، نور الصباح ، بدر البدور ، بحثت أيضا بين الأسماء ذات الموسيقى الخافتة وتنقلت بين سهاد ودنان وسلاف دون أن تستقر على أى منها .

كان نهمها فى معرفة الأسماء أسرع الطرق لتعلم العربية .

فهى فى يوم ريحانة ، جمان ، رضوانة ، صفوانة ، وفى آخر وعد ، وجد، عهد ، رغد .

لماذا لم تنادها مكية بأى اسم حتى الآن.

☆☆☆

فور استيقاظها ذهبت ليز إلى غرفة جدتها على ضوء الشموع . بادرتها مكية بقولها good evening .

اعتذرت لأن الكهرباء مقطوعة «ولكن لا يهم ، لن نغير ما اتفقنا عليه وسنصعد المكتبة» .

أو مأت ليز وساعدت جدتها فى إشعال شمعة ، تضخم ظلان فوق الحائط وامتزجا بالزخارف . احدهما قصير وأكثر انحناء والآخر نحيف متكاسل ، منظر نادر من الذى يعجب يوزوكى ويتمنى تسجيله بالكاميرا .

تحركت ليز فتحرك الظل النحيف . اتخذت مكانها بجوار مكية حول طاولة الطعام .

أكلت ببطء جعلت لكل نكهة مكانا فى ذاكرتها . لم تقطع مكية أفكارها واكتفت بآهات وضحكات .

☆☆☆

صعدا إلى المكتبة بعد اجتياز سلم حجرى ضيق وباب خشبى ، نقشت عليه كتابات عديدة ، ميزت ليز بصعوبة جملة عربية وترجمتها الفرنسية . الكتابات الأخرى أشبه بخربشات فنان .

تخلل عملية الصعود ، اختلال قدم ليز فوق احدى الدرجات المكسورة وخيالات أخافتها (ثم اكتشفت أنها انعكاسات صورتها فى المرايا المتناثرة على طول السلم) وتلكعها أمام إحدى المرايات

لتأمل بروازها ، وسقوط الشمعدان من يد مكية .

حل الظلام والصمت . قطعته مكية بضحكة وحديث هامس ملخصه أن تبقى مكانها حتى تعود .

☆☆☆

أثناء الانتظار ، تذكرت ليز حكايات لى لى الطاهية ، التى كانت ترويها لسكان الجانب الخلفى من قصر باروخ فى وايتلى هايتس .

كانت طاهية موهوبة ، استطاعت أن تغير مفهوم الطعام لدى كل من تذوق أصنافها ، فلم يعد احتياج بيولوجى ضرورى للحياة بل احتفال كبير ممتع ومثير . كان باروخ يعتبر مأكولاتها المبتكرة دعاية لصفقاته .

وهذا أعطاها مميزات استثنائية لم ينلها أحد من سكان الجانب الخلفى ، فتطرقت حكاياتها إلى مناطق محظورة فى جرأة وبلاغة .

كانت تمزج الأوهام بالحقائق لتحقيق المعادلة الصعبة كى تجعل حكاياتها مسلية ولها مصداقية فى الوقت نفسه .

ولكنها أحيانا ولدواع أمنية كانت تواصل الحكى فى سرية ، كما حدث فى سلسلة حكايات الرجل المسمار . فقد انتقلت من أذن لأخرى ، كل يتدخل فيها بأسلوبه ووفق رؤيته التى تنقصها الموهبة، ووصلت فى النهاية إلى ليز مطابقة للواقع دون خيال يجملها . مثل قول «لماذا هو مسمار ، لأن صوته مثل نقر مسمار ويتصرف كما

يتصرف المسمار ليجعل نفسه مفيدا رغم ضآلته» فما كانت لى لى لتسرد بمثل هذه الطريقة .

يومها اقتربت ليز من الرجل الجالس بين أنتيكاته فى بهو القصر وسألته إن كان جدها «أريد الحقيقة» .

تطلع إليها باروخ من خلف نظارته المستديرة وكان يراجع كلمة سيلقيها أمام مستخدميه الجدد ويردد «نحن فى كوكب وحشى ، المنافسون وحوش ، لن نكتفى بإضعافهم ، سنقضى عليهم» .

سألها أن كان يعجبها ما سمعته، لابد أنه يعجبها لأنه الحقيقة الوحيدة .

شعرت ليز بالخجل ، وتصورت أنها ضلت الطريق إلى الرجل المسمار الذى تتكلم عنه الحكاية .

ضايقها أكثر أنها كانت طفلة ، لم تفهم ما قاله باروخ وتتصرف كبيرة.

☆☆☆

وصلت مكية أخيرا بأعواد الثقاب لتنقذها من الأفكار ، واصلا الصعود، توقفت ليز أمام الباب دقيقتين وقرأت «بيت الحياة » و «La maison de la vie» ثم تبعت مكية إلى الداخل .

(٩)

وجدت ليز نفسها فى متاهة من القاعات والطاولات والأرفف المرصوص عليها كتب تقليدية وأخرى من البردى ، جلد الغزال ، أو الألواح الطينية .

فتحت لها مكية الأدراج ، أرتها أوسمة ، بطاقات دعوة ، زجاجات عطرية.

فى كل ركن رسم أو نموذج للجسد الإنسانى ، توقفت مكية أمام أحدها، نموذج مطاطى للرجل البرونزى ، أشارت إلى خطوط رسمت عليه «هذه مسارات الطاقة» لم تنتبه ليز اليها ، كانت تبحث بين الأرفف عن (ألف ليلة وليلة) .

قرأتها بالانجليزية وتمنت لو كانت واحدة من بطلاتها ، تعيش فى الخيال وتحل مشكلاتها بالمعجزات .

سألتها مكية «عم تبحثين» .

« عن معجزة»

نظرت إليها بحنان «زمان تمنيت أن يحدث لى شىء استثنائى، معجزة ، وبعد سنوات عرفت أن ما أردته هو مكية ، بكل ما فيها من أخطاء» .

وأضافت بصوتها الذى يشبه رنين جرس!

« you are a miracle» .

ولكن أبطال القصص يموتون لو لم يعرفهم أحد ويتفاعل مع حكاياتهم ، يحبونهم أو يكرهونهم ... لايهم . وهى خائفة على أبطال ألف ليلة ، أن تخنقهم دفتى كتاب ، وضع على رف سنوات .

أكدت لها مكية مرة أخرى ، بعد أن طلبت منها الانحناء قليلا والاستماع إليها بقلب مفتوح ، أن المعجزة الحقيقية داخلها . لم تأخذ ليز كلامها بجدية واعتبرته كلاما نظريا من امرأة معزولة عن الواقع ولم يعد أمامها مجال للتجربة والألم .

تناولت إحدى البطاقات من درج مفتوح «ما هذا ؟» .

أخذتها مكية « آه .. افتتاح القناة» .

جلست فوق مقعد منخفض وبدأت تحكى .

«الدعوة وهذا» .

أشارت إلى أحد النياشين المرصوصة فوق طاولة قريبة .

« تقديرا لعبد الرحمن على تفانيه أيام حفر القناة ولوصفة طبية

ابتكرها، خلصت الخديو من السعال .

حكت كيف التحق عبدالرحمن فور تخرجه من مدرسة الطب بالإدارة الطبية لشركة قناة السويس . تنقل بين مراكز الحفر المختلفة . كان يترك كشكه الدافىء ويشارك العمال نومهم فى العراء . عرف أسماءهم ، مواويلهم ، شكواهم ، الرقصات والأغنيات التى ابتكروها ومزجوا فيها خطواتهم ولهجاتهم .

نصحه رئيسه الفرنسى أن يحترس ، فالبرد شديد والحمى ظهرت بوادرها .

« من الممكن أن تموت» .

كان الموت عدوه الوحيد ولكن «مواجهته أفضل من تفاديه والخوف منه» .

وحين تفشت الحمى تنقل بين العمال يملى تعليماته .

«قاوموا .. فكروا فى حبيب قديم أو ذكرى حلوة» .

كان مثل قائد يقود معركته ضد عدو قوى مراوغ ، ويحزنه أن تنطفىء الحياة داخلهم دون مقاومة .

«الحبيب ممكن تخيل وجوده ، ولتكن الذكرى ما تمنيتم حدوثه».

وبتحريض منه استبدل كل منهم ذكرياته المؤلمة بأخرى أنستهم الخطر للحظات .

صار لكل منهم حبيب يزوره فى أحلامه ، تفننوا فى رسم صورته ، فى كل مرة تختلف الصورة ، ولكنها مثلما أرادوا لأنفسهم ، سعيدة موفورة الصحة .

قضى ست سنوات هناك ، قاتل فيها الألم والمرض دون كلل وبلا فائدة كبيرة . ولكن الخديوى قدر جهوده وقلده النيشان فوق بزة مليئة بالشارات الذهبية وسلمه بنفسه دعوة كتبت على جلد الفيل ، لحضور حفل افتتاح القناة .

كان حفلا أسطوريا ، أفقد عبدالرحمن توازنه وأغرقه فى رفاهية أنسته الألم برهة .

وجد نفسه ، على ظهر سفينة شقت القناة ومعه عظماء أوروبا .

أسكره نبيذ فاخر احتساه وعطر غامض تسلل إليه ، وطيف امرأة مرت خلفه ، واتاه شعور أنها امرأة حياته ، كاد يلتفت ليقبلها قبل أن تفلت منه إلى الأبد ، أوقفه صوت آتى من المياه ، مثل كلمة متآكلة أو طنين . نظر هناك .. لا أحد ولا أحد حوله الآن. الضيوف فى الجانب الآخر مشغولون بألف سبب للبهجة .

نظر مرة أخرى فى صفحة المياه ، أكثر إصرارا ورغبة فى رؤيتهم ، حتى لمحهم ، جماجم كثيرة تتحلق حول بعضها ، تعرف على أصحابها أيام الحفر .

أطرقت الجماجم ، لم تكن ساخرة ، لطيفة . كالتى ظهرت له قبل ذلك مرات ، كأنهم فى جنازة ، كأنما تذكر أصحابها فجأة أنهم موتى . لم ينتقدوا بزته ، شرائطها الملونة وهيئتها البهلوانية ، ويتبسطوا معه كما يفعلون مع بهلوان ، بدا سيدا ، مثل هؤلاء السادة الذين ساقوهم قسرا إلى أماكن الحفر . لم يتمكنوا من إخافتهم حتى بعد أن ماتوا وتحولوا إلى عفاريت ، لأن سادة ذلك الزمن كشفوا كل ألاعيب العفاريت واعتبروها قصر ديل .

انفتح باب الحكايات بينهما ، تكلمت ليز عن لى لى ، يوزوكى وحياتها فى أمريكا ، وحكت مكية كيف تربت فى بيت عبدالرحمن وقصة زواجهما بعد أن كبرت .

لم تصدق ما كانوا يقولونه عن جذورها ، وأنها ابنة احدى قريباته. أعجبها أن تكون ابنة غجرية ، استدعوه لمداواتها من الحمى ، فأخذت عليه عهد تربيتها وهى تصارع الموت. حين أخبرته ذات يوم بافتراضها ، أكتفى بابتسامة صغيرة ولم ينكر «أليس هذا دليل ... وإلا ما تفسير الروح الغجرية التى تتملكنى أحيانا» .

سكتت مكية وقامت لتحضر مخطوطة من فوق أحد الأرفف ، أعلنت أنه (الصيدنة فى الطب للبيرونى) .

توقعت ليز حكاية جديدة عن المخطوطة وما أضافته لمعرفة

عبدالرحمن الموسوعية ، ولكن بدلا من ذلك ناولتها مكية ورقتين أخرجتهما من بين الصفحات .

وضعتهما ليز فى جيب سترتها .

تركا المكتبة ، أوصلتها مكية إلى غرفتها وتمنت لها نوما هادئا .

وحين وجدت نفسها وحيدة أخرجت ليز الورقتين وقرأت ما بهما على ضوء شمعة .

أعادت القراءة مرات غير مصدقة . كانتا مثل خبطتين على الرأس ، نسيت معهما الوقت الساحر الذى قضته فى المكتبة ، وتذكرت فقط سبب قدومها وما أراده منها باروخ . الورقتين مفاجأة بكل المقاييس ، إحداهما حجة بيع البيت لحبيبة منذ ثلاثين سنة والأخرى شهادة ميلاد باسم حبيبة على أحمد عبدالرحمن .

لقد انتهت المهمة .

إذن اسمها العربى هو حبيبة ، والبيت الذى تصارعوا عليه أكثر من ثمانين عاما لم يعد ملكا لمكية .

حبيبة وحدها من يملك حرية التصرف فيه .

تهجت ليز اسمها الآخر ، حقيقتها الخفية ، نصفها العربى المفقود ، براءتها ، هلاوس أبويها فى سكرة حبهما المستحيل ، نطقته حرفا « ح ب ي ب ة » .

لماذا اختارا لها اسم مشتق من الحب ، الحب بالنسبة اليها كلمة مجوفة بلا معنى .

فرق كبير بين ما تمنياه لحبيبة وما صارت عليه ليز .

ليز التى يشغلها باروخ أكثر من أى شىء آخر .

ترى ما وقع إنجازها السريع عليه .

أمسكت تليفونها المحمول ، لتطلبه على رقمه السرى .

الفصل الثانى

الانهيار
سبتمبر ٢٠٠١

(١)

تركت ليز البيت بعد الفجر بقليل . مازال أمامها وقت طويل حتى لقاء مايكل . سلكت الأزقة المحيطة دون هدف . تجسدت لها أحداث الماضى فى وضوح ، لاتدرى إن كان ذلك بسبب براعة مكية فى الحكى ، أم هو خيالها الخصب الذى اكتشفته حديثا وأكدت لها مكية أنه وراثى .

تخيلت جدتها المصرية جالسة فى منتصف زقاق ملتو ، تحت مظلتها ، مع أوراقها وأقلامها ، وزجاجات الحبر ، تتابع المارين بعينى صبية جريئة .

كان زبائنها من الفقراء والشحاذين ، الذين لايملكون ثمن الذهاب إلى كاتب رجل ، ولا يتصورون فكرة تبديد ما جمعوه من صدقات من أجل كتابة رسالة ، ولكنهم طلبوا منها رسائل قصيرة ، مختصرة ، كى لاتطول فترة جلوسهم أمام امرأة ، تجيد ما يجهلونه حتى ولو كان شيئا تافها مثل القراءة والكتابة .

اعتبروها فى البداية مهانة أكبر من كونهم فقراء ، بعضهم حاول أن يتسول كتابة رسالته ولكن الكتبة القساة المنتشرون فى الأزقة والساحات ، سخروا منهم ومن الحسنة التى يطلبونها فى زمن أغبر .

هكذا بين شد وجذب حتى اقتنعوا أن لجوءهم لكاتبة رسائل قنوعة لا يمثل خطرا على كرامتهم ، على الأقل يمكنهم التطلع إلى عينيها والفوز بابتسامة .

الشحاذات أيضا لم يثقن فى قدرة امرأة قليلة الحيلة مثلهن على تخفيف معاناة أحد ، وطوال فترة كتابتها لرسائلهن لم يتوقفن لحظة عن مواساتها ، واثقات أنها تعانى مثلهن من هم ثقيل .

كان لديها زبائنها من الأفندية ، يطلبون رسائل مطولة مليئة بالمحسنات اللفظية ، بلا غاية محددة غير التحدث إليها ، وفى كل مرة يتركونها وهم أكثر بلبلة ، دون أن يفهموا لماذا ترهق نفسها ، بينما الأخريات يتحركن مثل أشباح من الصعب إثبات وجودها أو نفيه .

لم تصد مكية أى منهم ، قررت بعقلية عالمة وكما علمها عبدالرحمن ، أن تدرسهم قبل إصدار أى حكم . فعلت ذلك برحمة شديدة ، على الأقل لم تضعهم فوق طاولة كالتى يفحص عليها كائناته التى يجمعها من كل أنحاء العالم . ومع الوقت حولتهم إلى

أصدقاء . ولأنها لم تكن شبحا ، اعتبروها جنية .

وحين تزوجت عبدالرحمن الذى يكبرها بكثير ، اعتبروا ذلك دليلا على صدق فرضيتهم ، وعددوا قصص التزاوج بين جنيات وشيوخ هالكين ، ردت إليهم قوتهم ورزقوا بذرية .

كانت ليز يعجبها أن تكون حفيدة لجنية . ولكن مكية لم يكن يهمها كل هذه التكهنات ، اعتبرتها شائعة حلوة تمجد أنوثتها ، ويجب ألا تشغلها عن زبائنها الحقيقيين ، وخاصة الفقراء الذين ساهموا فى إقامة سمعتها ككاتبة رسائل .

كان لأسلوبها السلس ، وتعبيراتها الدقيقة ، وألفاظها المبتكرة ، أثره الفورى على أصحاب الأمر والنهى . فتشكلت الجمعيات الخيرية لتخفيف معاناة المحتاجين ، وتمكن شحاذون وشحاذات من العمل فى بساتين وأفنية البيوت الكبيرة . وإذا كان قليل منهم أصابتهم الرفاهية بلوثة حين اكتشفوا آخرين داخل هذه البيوت يتقلبون فى المخمل والحرير ، ويجهلون الفرق بين شهر طوبة وأى شهر آخر ، ولا يعرفون معنى أن توخز أجسادهم حصوات الطريق . إذا كان هذا قد حدث أو أكثر ، فليست مسئوليتها . أرادت المساعدة من أجل المساعدة . دون أن تضع فى اعتبارها الفوارق الطبقية ، لأن كثيرين ممن قصدوها عملوا أكثر من خمسين عاما فى الوظائف التى أسكنتهم فيها، دون شكوى واحدة . وحين

احترقت القاهرة ، وقام الثوار بثورتهم ، وسكنوا البيوت الواسعة بدلا من الرموز الاقطاعية القديمة . اكتشفوهم هناك يعملون فى الأفنية والحدائق دون توقف ، رغم شيخوختهم ، التى لم تمكنهم من تذكر مكية ولا رسالتها . وحين أخبروهم أنهم قضوا نصف قرن فى مذلة وعبودية ، أن الثورة ثورة ثورتهم ، وأحلامهم من الأولويات وسألوهم كما يفعل خادم المصباح السحرى ، عن أمانيهم بعد نهاية عصر الاقطاع ، تكلموا ولكن بحلوق متحجرة وألسنة تآكلت إلى حد لم يساعد الثوار على فهم مطالبهم ، فارتجلوا هذه المطالب ، وجعلوا أنفسهم أوصياء على هؤلاء الخرس، لأن خرسهم بدا أبدياً ولا شفاء منه .

(٢)

توالت الأحداث سريعاً منذ سقط البرجان، وحتى وجد يوزوكى نفسه ضمن وفد من صحفى القرعة الذين صاحبوا الرئيس الأمريكى داخل طائرته النفاثة.

لم يصدق ما شاهده فوق الشاشات، البرجان يتهاويان مثل قالبى سكر. هل هى خدعة هليودية، هل من يصاحبه داخل الطائرة الرئيس فعلاً، أم ممثل محترف أدي دوره فى براعة، فاصفر لونه، وتقمص دور المستهدف من شياطين العالم الشريرة.

ازدادت شكوكه فى أنه كان مشهداً تمثيلياً، حين مر الوقت ولم يعد بوش إلى البيت الأبيض.

فكر فى نيويورك، تذكر غرفتهم الضيقة فى بروكلن، النافذة المطلة على أرصفة شحن مهجورة، ظلال أبنية منهاتن التى تشبه ساحرات مشبوهات، لوحات أبوه المكدسة، الدخان المتصاعد من طرف سيجارة أمه.

كان أبوه مورى مهووس باليابانيات رغم زواجه من هندية، يرسمهن جالسات، نائمات، واقفات فى مطابخ حديثة، أو عند باب بيت قديم.

يكرر مخاطباً شارميلا:

«لسن مجرد نوبات الهام..... أكثر..... أكثر.... هل تفهمين».

يتأملهن مثل رحالة يتذكر رحلاته الخطرة، التى قام بها باحثاً عن كنزه وكنزه كما يقول هو يابانيته الضائعة، التى حولتها أمريكا إلى كائن مشوه بارد يفتقد الروح الحقيقية.

يقف أمام مرآه مكسورة، مستعرضا نفسه، يشير إلى جسده النحيل العارى، ووجهه المتغضن، وصلعته، وخصلاته الثلجية.

«لقد حاولت.... قلت لا.... بعثت رسائل كثيرة من خلال جسدى لأقول لا...... أخبرتك عن الجماعة كيف حاولنا مواجهة الزيف فى كل شارع يابانى».

يختلس النظر إلى زوجته شارميلا، الغارقة فى سحابة من دخان سيجارتها.

يزعجه جمودها، يضطرب، يحتضن يوزوكى، المتكور بين لوحتين كبيرتين، ويحكى له فى نبرة غضب وقهر، عن العروض التي قام بها مع جماعة من الشرفاء، الذين أحبوا اليابان حبا صادقا كبيرا.

كان ملخص تلك العروض، هو تجرد أبيه من ملابسه، هو

وجماعته في مكان مزدحم، أو حمل امرأة فى ثوب بلاستيكى شفاف فوق الأعناق، والتنقل بها بين عربات خط مترو يامانوتى الذى يدور حول مدينة طوكيو.

«أردت أن أقول لا لكل ما هو غربي.... للمحاكاة المسعورة لأمريكا بعد الحرب، أن أعبر بجسدى عن طبيعتنا المنسية».

يخفت صوته ويعلو، ولكن شارميلا لاتهتم، تشعل سيجارة أخرى، وتتمتم مستخفة «واضح... واضح جدا حبك لليابان والدليل وجودك هنا فى أمريكا».

كلماتها تؤله إلى حد الجنون

«نعم أحب اليابان... أحبها.... أحبها»

ساعات يقضيها مورى مؤكدا حبه لوطنه، مبرراً سبب ابتعاده عنه

«أردت أن أفهم نفسى.... لا يمكن أن أفهم نفسى وأنا فى اليابان».

تصرخ شارميلا بأنه خدعها بأوهامه، بفنه الزائف، بفشله، لتجد نفسها فى النهاية تعيش حياة أسوأ من منبوذات الهند، أعلى بناية متهالكة بلا أمل.

كانت معاركهما التى تستمر طويلا، انفجارات لفظية تختلط فيها اليابانية بالهندية والإنجليزية. لم يتمكن يوزوكى من نسيانها

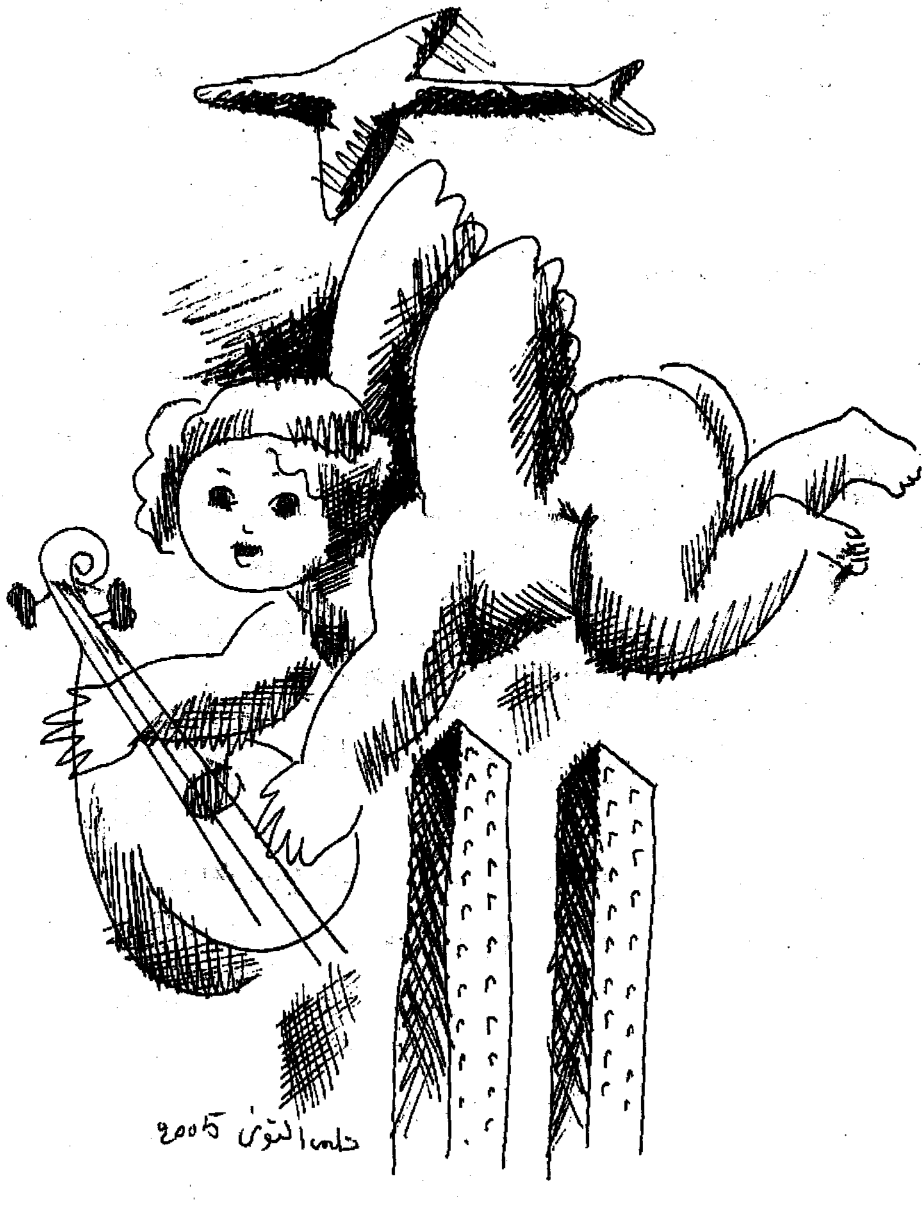
حلمي التوني ٢٠٠٥

حتى فى هذه اللحظة الحرجة. والرئيس الأمريكى على بعد خطوات منه، خائفاً مثل جرذ محاصر، ينسحب مثله خارج الصراع، كما كان يفعل وهو صغير إثر كل مشاجرة بين والديه، يبحث مثله عن ملاذ خارج الأحداث.

كان يوزوكى يجد ملاذه فى أرصفة الشحن المهجورة المواجهة لغرفتهم.

وحين يكتشف والداه غيابه. يبكيان ويعقدان هدنة للبحث عنه، يكون قد تجمد هناك من البرد.

يتحرك ثلاثتهم، مثل أشباح ليلية، ويعودان إلي الغرفة الضيقة، مع وعد بالحب والأمان.

ولكن كل شئ يعود سريعاً إلى سابق عهده.

وحين أحضر له مورى آلة تصوير بعد أن باع إحدى لوحاته، كان يقدم له عالما جديداً يهرب إليه، بدلا من أرصفة الميناء الباردة والمهجورة.

ولكن هذه الأرصفة كانت أولى لقطاته، لم يظهرها موحشة كما وصفها مورى وشارميلا وكل من شاهدها.

ظهرت فى صوره مثل حضن كبير.

(٣)

هل تهدم البرجان؟... تذكر يوزوكى الظل الذى استوقف كاميرته هناك.

كان ليلتها يفكر فى ليز، كيف يخلد وجهها الطفولى فى لقطة.

داس بقدميه ظلاً منحنياً بين البرجين. تراجع خطوة، وسجل المشهد بسرعة، قبل أن يستقيم الظل أو يختفى.

كانت لقطة مدهشة، معجزة حية، وفى الخلفية ظهر البرجان، كبيران، باردان، مثل شبحيين يتطلعان إلى السحاب..

هذه هى اللقطة جواز مروره إلى فندق والدورف استوريا، الذى يبعد عن البرجين بخمسة كيلو مترات.

كان وقتها يدرس التصوير ويتنقل بين وظائف صغيرة ليدبر نفقاته.

لم يكن يريد الاعتماد على أمه التى قفزت إلي خانة الأثرياء بعد استثمارها لموت أبيه الدرامى.

حبه لليز هو الذي دفعه للمغامرة، فكتب لمدير والدورف استوريا، يطلعه فى رسالة يائسة على حالته المادية وحلمه الكبير فكتب :

عزيزى مدير والدورف استوريا

أنا أحد العشاق الحالمين بالمستحيل، وحلمي أن أمنح حبيبتي عشاء داخل فندقكم، ولا أملك ثمن تحقيق هذا الحلم، فمازلت طالباً يدرس التصوير.

الحب دفعني إلي جنون الكتابة إليكم.

فأرجو أن تعذرني وتتسامح مع جنوني.

وقع الخطاب بمجنون ليز.

وأرفقه بعدد من الصور التى التقطها.

ولكنه كان فى قرارة نفسه يعرف صعوبة أمنيته، وبشئ من الواقعية، بدأ يدير فى رأسه بدائل أخرى تتناسب مع ظروفه، وأحبطه أنه لم يجد بديلا يوازى عشاء داخل الفندق التاريخى...

كان يدور حول الفندق كل يوم يلوم نفسه على تهوره.

وذات يوم أغلقت الشوارع المحيطة بالفندق، وأقيمت الحواجز الأسمنتية، وانتشر ضباط الشرطة بزيهم الأزرق، وحمل متظاهرون لافتات تندد بالعالم المسعور، وتطالب بالحد من الجشع والاستغلال.

عرف بالاجتماعات التى تجرى داخل الفندق بين حفنة من مستثمرى العالم، بغرض توسيع نفوذهم على الكرة الأرضية..

التقط يوزوكى بعض الصور التى لم ترضه، وأعد يافطة كتب عليها «يحيا الحب» بالهندية والإنجليزية واليابانية، ودار حول الفندق مخترقا آلاف المتظاهرين طوال أيام المؤتمر.

كان يعود كل مساء وبداخله شعور أنه أقل احباطا، وأنه ليس وحده، وأن هناك ألوفا لا يعنيهم بهرج والدورف استوريا، ويعتبرونه مقرا لاجتماعات مجموعة من الجشعين.

ووصل به الأمر إلى الخجل من فكرة العشاء هناك مع من يحب.

كان صادقا فى مشاعره، ولكنه لا يستطيع تفسير رد فعله حين تلقى خطاب من إدارة الفندق تخبره فيه بالموافقة على طلبه.

كأنه سكر، أصيب بالهلاوس ما لا يقل عن خمسة عشر دقيقة قرأ الرد ودندنه فى شوارع منهاتن.

كان المارة يتجنبونه فى برود، كما يفعلون مع متسول أو مخبول.

ولكنه لم يتوقف عن القراءة والدندنة.

عزيزي روميو

لا مانع من حصولك أنت وليزك علي عشاء ملوكي داخل الفندق، مقابل بعض الصور التي التقطتها كاميرتك العجيبة.

تحياتي

مدير والدورف استوريا

☆☆☆

نحا المدير البدين الصور كلها إلا تلك التى تصور مركز التجارة العالمى والظل.

«هل كان رجلا أم امرأة»

بوغت يوزوكى بالسؤال فهو لهم يتبين صاحب الظل أبدا.

أكد له المدير، أنها امرأة تقاوم لسعة برد أو قرصة جوع، مستشهدا بتكوين العظام، درجة الانحناءة، وهاجس داخلى لايخطئه.

كانت لقطة وحشية.. فاضحة تصور نيويورك الحقيقية التى يخشى زبائنه من رؤيتها.

اعتبر أمسية العاشقين رشوة لضميره الذى آلمه. كأنه بذلك يعتذر لكل الظلال المحدقة بحقد وحرمان فى المبانى الأسمنتية العالية.

أشرف بنفسه على قائمة الطعام وكانت كما يلى:

١) الافتتاحية...... كوكتيل منهاتن

٢) شرائح سمك عذراء الأطلسى مقدمة فى كيس شفاف كتب عليه بحروف فضية «من بوسيدون إله البحر».

٣) شرائح من صدر دجاج فى عش على هيئة كاميرا تلتقط صورة لجمهور من الخضر.

٤) حلوى عودة الفاتح المأخوذ اسمها من أوبرا عايدة لفيردى.

٥) كأس من الشراب المعطر يعين يوزوكى لحظة اعترافه الكبير بالحب.

خلفية من الموسيقى والشموع وزهور الغاردينيا والزنابق البيضاء.

كانت مساومة للشاب الموهوب كى يبقى أمر الصورة سرا.

حقاً نيويورك مليئة بالمشردين والجوعى والمجاذيب ولكن الصورة دليل مادى على ذلك وإدانة واضحة لزبائنه.

ولكن أثناء العشاء، بدلا من أن يراقص يوزوكى ليز ويخطف لنفسه قبلة حب، تقيأ وتطايرات المعجزات المطبخية اللذيذة مثل شظايا رمادية، غطت الزهور والشموع وثوب ليز الأنيق.

فزعت ليز وتصورت أنه أصيب بتسمم بسبب المايونيز الذى أصر على تناوله.

انفجرت فى الجميع تهدد وتتوعد. لم يتمكن يوزوكى من الكلام أو إفهامها.

كان يشعر بالإعياء وأنه مسمم فعلا، ليس بالمايونيز، ولكن بذكرى أبيه المنتحر.

صرخته «أى جا ناى كا»

سيفه يخترق الكيمونو، دماؤه المتناثرة مثل نافورة حمراء فوق

حصيرة التاتامى، واشغال القش اليابانية، وعشرات التمائم التى أعدها بنفسه، ورسم عليها صور الآلهة البوذية، أغنيته الأخيرة التى تمجد كعكات الأرز والساكي والجنس، فيما يشبه وصية له، أو حسرة لاضطراره مفارقة هذه المتع.

أمه تخترق كل هذا بحذاء وردى وخلفها طابور من الصحفيين والمصورين، الذين جاءوا لتسجيل نهاية فنان موهوب همشته الحضارة .

لم يستطع أن يفسر ماحدث فى والدورف أستوريا .

كيف سمح لذكرياته المأساوية أن تفسد عليه فرحته بيد ليز الصغيرة وعينيها البراقتين ، وكلمة الحب التى ادخرها لها .

هل لم يعد قادرا على الحب ؟ ، سأل عرافة أستوقفها فى شيجاغو بعد ذلك بشهور ، ليلتقط لها صورة .

هزت أساورها وعقودها ، ودارت حوله بثوبها الذى جعل منها قوس قزح، وربتت عليه بأصابعها المصبوغة بألوان الطيف .

«...... لا علاج لك سوى أن تغرق فى أحزان الآخرين .... لن ينهى هذا الألم داخلك .... ولكنه يجعله أقل ...» .

☆☆☆

أفــاق يوزوكى ، لايزال داخل طـائرة الرئاســـة ، عــرف أنهـم متوجهون إلى حصن عسكرى فى نبـراسكا ، وصلته جمل مقترحة لخطاب بـوش لحظة ظهوره على مـسـرح الأحـداث ، تصف العـالم كحلبة «صراع هائل بين الخير والشر» .

وأمريكا هى «الفنار الأكثر سطوعا للحرية والفرص فى العالم». ومقاطع أخرى مؤثرة .

(٤)

تأملت ليز خريطة القاهرة ، المليئة بالنقط والدوائر والتقسيمات .

فكرت فى أماكن غير موجودة فوقها ، تلك التى تحمل قلب المدينة الحقيقى .

هذه الخريطة زائفة ، لن ترشدها إلى شياطين القاهرة ، وملائكتها ، الروح، الصراعات ، الضحكات الصادقة ، الجروح الغائرة ، الأمل ، الفرح ، وجوه الناس ، أحلامهم .

كانت التعريجات مرسومة بدقة فوق الورق مثل مؤامرة محبوكة لتضليلها .

انفرج الزقاق مفضيا إلى شارع أوسع .

اتجهت إلى محطة الأتوبيس مقررة أن تغزو القاهرة دون تخطيط وبلا خريطة .

تعرف أنها سمراء ، ملامحها شرقية ، لها هيئة صعلوكة ولا تشبه الفاتنات ولا المشهورات فى شىء .

لم يلتفت إليها أحد ، واختلست النظر فى حرية إلى الوقوف ، المرأة البدينة والعجوز الذى يربط ذراعه بضمادة ، والولد النحيل الذى يمسك يد بنت مذعورة .

اقتربت ليز من العجوز وسألته سؤالا ، ابتعد عنها دون إجابة ، ومصمصت المرأة البدينة شفتيها ، والتفتت إليها البنت كأنما أكتشفت فجأة منافسة لايستهان بها .

أرجعت ليز ماحدث إلى ركاكة عربيتها وكلماتها المتآكلة ، وأحست أنها سجينة عدم الفهم .

لكنها أستعادت فضولها بسرعة وراحت تتأمل ما حولها ، عربات طعام تزاحم . الناس عليها ، باعة جائلين ، أطفال يحملون حقائب مدرسية ثقيلة ، رجال يهرولون ، نساء يساومن على ثمن بضاعة افترشها أصحابها فوق الأرصفة، وافدين جدد الي المحطة، متسولون برزوا من الأزقة ، أناس بدوا لها فقراء توقفوا ليتصدقوا عليهم ، بعملات معدنية وورقية وأطعمة ونظرات تعاطف وجمل تخللها اسم الله .

كانت مندهشة من مشاعرها ، بإمكانها أن تحب وتتعاطف ، وأن لا تكون آلة وتفكر فى الضعفاء مادامت بعيدة عن باروخ .

تأملت الخريطة مرة أخرى ، لا أثر للمكان الذى تقف فيه ، حيث الفقراء يتكاتفون ليطعموا الأفقر ، مما أكد لها عدم جدوى الخرائط.

ولكن ما الذى تغير فيها ، هل هى حبيبة تنمو داخلها ، وتأخذ فرصة للحياة مثل ليز، هل هى التى دفعتها لتبتسم للعجوز فى محاولة أخرى للتواصل .

رد عليها العجوز بابتسامة ، وأجابها :

«المتحف المصرى فى ميدان التحرير يابنتى» .

(٥)

استكشفت ليز القاهرة فى عشوائية ، على قدميها ، داخل أوتوبيس ، خلال نافذة مترو ، مخترقة بذلك قلب المدينة وأطرافها .

توالت الساحات والميادين ، دون أن تجد أثراً للأماكن التى وصفتها مكية.

اجتذبتها أحزمة الفقر التى تطوق البيوت الفخيمة ، العشش والطرقات التى تشبه ألما رأته فى عينى يوزوكى .

توقفت فى ساحة صغيرة ، كان الأطفال يتحلقون حول كارو قديمة ، ذكرتها بتلك التى كادت تقلب عرس مكية إلى صراع طبقى .

فبينما كانت العربات المطهمة التى تجرها خيول شهباء ويتقدمها الأغوات، تتوقف الواحدة تلو الأخرى ، أمام بيت

عبدالرحمن ، حاملة إلى العرس ، الهوانم والبهوات والباشوات ، وضيوف قادمين من كل أنحاء الدنيا .

فاجأت الكارو الجميع بالظهور وفوقها جوقة من المهرجين، مبيضى النحاس ، صانعى الأقفاصْ ، القرداتية ، تتوسطهم زبيبة العالمة وفرقتها . قرعوا الطبول والصاجات والزمامير ، لحظة دخولهم الزقاق تحية لمكية، لم ينسوا أنها كتبت لهم ولذويهم ومعارفهم وجيرانهم ، شكايات بليغة، مؤثرة بعثوا بها إلى مندوبى الحكومة ، لتخفيف الضرائب عن طوائفهم ، ولم تتقاض أى أجر .

أثارت الكارو وراكبوها ، أعصاب سليلات الحسب والنسب ، فصرخن وغاب بعضهن عن الوعى ، مما جعل الأغوات يتحلقون حول الكارو جاعلين من أجسادهم متاريس .

شرع عدد من فتوات الكارو نبابيتهم وكاد الأمر ينتهى بمعركة كبيرة ولكن وصول عبدالرحمن ومكية داخل سيارة ألجم الجميع .

لم يكن أغلب المدعوين رأى من قبل هذا الاختراع الجهنمى .

البعض سمع بالسيارة ولكنه لم يستطع تصور كيف يمكنها اختراق الشوارع المختلفة دون الحاجة إلى قضبان .

كانت مكية تقودها حاسرة الوجه ، وعبدالرحمن يوجهها فى رقة كلما انحرفت عن المسار .

اجتذبت الآلة شيخول وعددا من الأغوات ، فتخلوا عن مواقع استراتيجية فى حصار الكارو ، مما مكن مكية من تحرير مهنئيها فى بساطة فور نزولها من السيارة .

تقدم عبدالرحمن ضيوفه الأكابر ، وأجلسهم فوق الطاولات المرصوصة فى الحديقة والقاعات ، وتولت مكية الأمر ذاته مع ضيوفها راكبى الكارو ، الذين بدوا مثل علامات استفهام تناثرت ، وسط طوفان من الحرير والكشمير ، الجواهر البراقة والكلمات المنمقة الحذرة .

ولكنهم تغلبوا على ذهولهم بسرعة ، ونفخوا زماميرهم فور انتهاء الأوركسترا من عزف مقطوعات بتهوفن وموتسارت ، وتبخترت زبيبة العالمة بين راقصى وراقصات العالم ، فتفوقت على الفلامنكو الأسبانى ، وفتيات الشيجا اليابانيات ، وهنود الأمريكتين ، وممثلى قبائل الدوجون الأفريقية حيث تعلم عبدالرحمن من تشاماناتها تركيبات دوائية نادرة .

وبدلا من الأختفاء تنقلت مكية بين الطاولات لتتأكد بنفسها ، أن كل شىء على مايرام ، وسط غيرة الهوانم وانبهار البهوات والبشاوات .

كان الخواجات أكثر اندهاشا من المصريين والأتراك والشركس لأنهم وجدوا بمصر سيدة أكثر تطورا من نساء أوروبا تقود سيارة .

ولكنهم تكتموا خبر وجودها بعد أن تأكدوا أنها استثناء ، وأن الأخريات متشبثات بالظلال .

تكتم باقى المدعوين الخبر ، لأنه فضيحة أكبر من فضيحة كتاب قاسم أمين ، عن تحرير المرأة ، والذى كان قد صدر منذ فترة وجيزة.

فقط راكبو الكارو تقبلوا الأمر فى بساطة ، فكثيرات من نسائهم قدن الكارو وعملن واختلطن بالرجال .

وفى ذاكرة هؤلاء عاشت تلك الليلة بتفاصيلها ، وتناقلوها من جيل إلى آخر .

ولكن لم يلتفت إلى مايقولون أحد ممن تكلموا بعد ذلك عن تحرير المرأة وحقوقها .

لأن أحفاد راكبى الكارو الذين يعرفون الحكاية ، مازالوا يعيشون فى أماكن تسقطها السجلات .

(٦)

صارت السيارة شغلة شيخول فى الأيام التالية للعرس .

يدور حولها ، يتفحصها ، يتقرب للروح التى تسكنها بكل الوسائل .

طلب من مكية أن تكتب له رسالة أخرى ليضعها لزيريجا داخل السيارة ، لأن الروح التى تبعث الحياة فى الحديد وتسيره ، قادرة أن توصل رسالته إلى العالم الآخر .

وضعوا السيارة فى جراج قريب من الأسطبل .

وفى كل مرة تدير مكية المحرك ، تصهل الخيول دهشة ، من ذلك الصوت الذى لايشبه أى من أصوات الطبيعة .

ورغم أن مكية تنتقل كثيرا داخل سيارتها فى شوارع القاهرة ، لم يلحظها أحد ، لأن المارة اعتبروها حلم يقظة أو وهم .

كان عبدالرحمن يضحك من محاولاتها المستميتة فى الظهور ، فلن يسمح لها أحد بذلك قبل مرور عشرات السنوات .

وقبل أن تيأس وتفكر فى التخلص من السيارة والاحتفاظ بها داخل قبو حتى يأتى الوقت المناسب ، أوجد شيخول حلا مثاليا لعصره .

ففى صباح يوم الخميس، أحس وهو ينظف السيارة، بجسد الآلة يهتز تحت يديه، وسمع صوتاً مثل نداء أو أنين مكتوم. اتخذ قراره على الفور، وربط السيارة إلى عدد من البغال وتوجه إلى الجبل. ترك الآلة تتدحرج فى سلام من فوق قمة شاهقة، وتتحول إلى كتلة من اللهب.

عاد عند المغرب، واعترف بفعلته على الفور لمكية، مقترحاً أن تعيده للعبودية إلى الأبد.

تنهدت مكية ولم تغضب، وأحست أنها تحررت أخيراً من الالتزام الذى قطعته على نفسها، بالظهور المستمر، هى وسيارتها حتى يعترف المارة بوجودها .

كان تجاهلهم لها يزيدها إصراراً ويأساً، لجأت إلى الأعشاب المهدئة، لتتخلص من احباطاتها وتتمكن من المواصلة، حتى جاء شيخول بحله السحرى غير المتوقع.

قالت له حين رأته منزوياً فى ركن، يبكى.

«لا يهمك ... فالسيارة لم تكن موجودة».

أجاب بأن مايشغله هو هل تقدر الروح التى حررها بمجهوداته، وتوصل رسالته إلى زيريجا.

«اطمئن».

«هل عرفت أنى أحبها».

«يكفى أنك تحبها».

(٧)

علمت ليز بالأحداث فى أحد المقاهى، وهى تحتسى مشروباً شرقياً لاتعرفه، طلبته من النادل، بعد اشارة عشوائية إلى قائمة المشروبات.

علت الأصوات حولها وتداخلت، ودبت الحياة فى عجائز المقهى، فتركوا ألعابهم ومقاعدهم ، راحوا وجاءوا وهم يخبطون كفا بكف.

لم تهتم ليز فى البداية، ولكن تدافع حشود الناس إلى المقهى،ومحاولتهم ايجاد مكان قريب من الشاشة، جعلها تترك الكوب وتسأل أقرب عجوز عما يحدث.

اجابها بصوت يشبه نقيق ضفدع «أمريكا بتتهد .... أمريكا بتتهد» عيناه تضيقان ووجهه ينكمش.

لم تفهم شيئاً، ومر وقت طويل قبل أن تتمكن من رؤية برجى

مركز التجارة العالمى وهما يتحولان إلى أنقاض.

كان الجميع يطلق عبارات الكراهية لأمريكا. أحست ليز بالخوف وابتعدت خارج المقهى.

تلقت مكالمة من مايكل يؤجل ميعادهما من الثانية إلى الثامنة مساء.

- «مايكل ما الذى يحدث».

- «لاتهتمى».

- «إنى خائفة..».

- «اهدئى .... اذهبى إلى الغرفة المحجوزة باسمك فى الفندق».

العجائز والأطفال والنساء وسائق التاكسى الذى استقلته للفندق يكرهون أمريكا، ويتحدثون عنها كما يتحدثون عن الشياطين واللصوص والعاهرات والكوابيس.

فكرت فى نيويورك، لم تتذكر سوى والدورف استوريا، والعشاء الذى لم يكتمل مع يوزوكى.

كانت ليلتها قريبة من الحب، ليس بسبب الرومانسية والفخامة التى خطط لها صديقها.

أثرت فيها أكثر نهاية الليلة الدرامية، وجه يوزوكى الأصفر وتلويه من الألم.

كانت قلقة وثائرة ليس بسبب شكها فى تعرضه لتسمم المايونيز كما ادعت، ولكن لعجزها عن قراءة أفكاره فى تلك اللحظة، أحست أنها بعيدة منفية عن عالمه.

تغير يوزوكى من ليلتها. صار كثير الاختفاء والسفر، وفى كل مرة يعود اليها بصور بيوت مهدمة، عجائز منكفئون على وجوههم، أطفال أفزعتهم الكوابيس.

يكتب فى خلفية كل صورة تعليقات مثل، هذا مافعلته الصواريخ الأمريكية بى، أو ليذهب تمثال الحرية إلى الجحيم.

أقام معارضه فى القرى الأمريكية، وفوق أرصفة شيكاغو، فى تجمعات الزنوج فى نيويورك.

أما معرضه فى بوتوماك جاردنز فلا ينسى، حيث تزامن مع احتجاجات السكان، لأن السلطة المحلية قررت اقامة سور حول المكان.

كانوا ثائرين، تمكن يوزوكى من التقاط الصور وهم يشعلون الحرائق الاحتجاجية، ويرشقون الشرطة بالحجارة، ويصرخون.

«لسنا حيوانات فى انتظار الأقفاص».

توقف عند عجوز منهك، خلد بؤبؤيه فى لقطة زوم، كانا متسعين فى غضب أو فزع وهو يقول له «أمريكا بلد الدولار».

حدق الرجل بعيداً عن بوتوماك جاردنز دون أمل حقيقى.

«لا أمل».

تركه ومضى.

تفاعلوا مع معرضه، أحبوا صوره.

قالت له فتاة حلوة شعرها نارى وعيناها لوزيتين، بعد أن تأملت كل الصور .

«أريدك أن تلتقط لى صورة».

لم يتعود يوزوكى أن يلتقط صور بالطلب.

قالت «أريدك أن تظهر فى وجهى البصمة الخاصة التى لايشبهها شىء» .

فى موقف آخر كان يمكن أن يرفض فى بساطة ويقول «لا يا أنسة».

ولكن وقتها والجميع ثائر بسبب السور «لا» تعنى تحقير، تأكيد أن أهل بوتوماك جاردنز قرود تستوجب العزل.

التقط صورة للوجه . ادهشه تصميم الحياة العجيب الذى صبغ الملامح.

كانت صورة رائعة ولكنه التقطها صدفة، الفضل كله للفتاة.

لم يتمكن من تفسير النتيجة المذهلة لصورة التقطها دون حماس.

قالت «سأحتفظ بها».

أعطاها يوزوكى الصورة بعد تردد.

(٨)

تابعت ليـز الأحـداث من غـرفـتـهـا بالفندق، قـالوا إن طـائرة ارتطمت بالبنتاجون.

أقلقـتـهـا تلك الطـائرات الطـائشـة . فكرت فى أمـهـا جيـزيل، هـى هل فى مأمن؟

قضت نصف عمرها فى بيت قرميدى فى تسكيدو بارك ، التى لاتبعد كثيراً عن نيويورك. عاشت خارج الزمن محاطة بعجائز.

حين زارتها فى المرة الأخيرة، أدهشـهـا سكون عينيـهـا، لم تعد نظراتهـا تشـبـه الخـنـاجـر أو تشـبـهـهـا ولكن بلا نصـال أو مـقـابض، خناجر دخانية لاتضر ولا يلحظها أحد.

كانت تقضى الوقت تنظر من نافذتها إلى الأشجار والبحيرة، وتشيخ تحت ملاحظة الخدم والمرضات.

شاخوا معها بإرادتهم، أو دون أن يدروا، سحرهم باروخ بالمال. على أمل أن يعوضـوا خسـارتهم ، ويسـتردوا عـمرهـم الضـائع

يوماً برزم الدولارات.

احدى الممرضات أعطت جيزيل أقراصا، وجلست تتصفح المجلات، ترسم دوائر حمراء هنا وهناك. حول شفتين مكتنزتين أو أنف قوقازى. تختار لها شكلا مستقبليا حين تقرر الرحيل، لتعيش الحياة التى تمنتها كثرية لاتشيخ..

تحسب تكاليف كل عملية على حدة. ربما لاتناسبها أنف نيكول كيدمان، ولا شفتا ميشيل فيفر. تربت على ذوق مختلف.

ولكنها أمريكية، ويجب أن تحلم بشكل عصرى. كانت تتدرب كل يوم كى تتصرف كامرأة ذات شباب أبدى. تحاول التحكم أكثر فى نبرة الصوت والايماءة، تبدل أحلامها من عام إلى عام وفق الموضة، وتؤجل دائماً لحظة الانطلاق.

«لا يمكن أن أترك جيزيل المسكينة».

ولكن بنظرة واحدة اليها وإلى باقى العجائز، أدركت ليز الحقيقة، ليست جيزيل ولا مال باروخ هو ما ابقاهم داخل هذا الصندوق القرميدى، ولكنه خوفهم من الحياة.

ذعرت الممرضة «ماذا ......؟».

كأنها أدركت فجأة الحقيقة، تلاقت عيناهما بلا كلمة.

أى كلمة معناها أن تجن امرأة أخرى فى هذا العالم.

بادرتها الممرضة قائلة وهى تشير إلى ثدى كبير فى احدى المجلات «هل يناسبنى».

(٩)

لم تنتبه إليه كانت تتابع عازف الكمان :

«عفوا»

أعاد مايكل ما قاله «العالم مليء بالأسرار» .

- «ولكن مايكل هذه مجرد شجرة سنط ، ولا يوجد بها أى علامات تثبت أنها عصا موسى» .

قضم مايكل قطعة جبن وقال «عصا تتحول إلى شجرة سنط فى المكان الذى استوطنه النبى موسى وبعث منه رسائله إلى فرعون .. باروخ عبقرى .. كيف حصل على هذه القصة الرائعة» .

- «ولكن مايكل .. لم أسمع باروخ يتكلم ولا مرة عن الله» .

- «ليز أنت صغيرة .. باروخ ممكن أن يتحول إلى رجل دين ورع فى أى لحظة .. إذا ضاعف ذلك من ثروته .. والعصا المتحولة إلى شجرة .. قصة تثير مشاعر كثيرين ممن يفكرون فى معجزة إلهية تنقذهم من الألم وقلة الحيلة» .

اقترب منهما عازف الكمان العجوز ، التفتت اليه ليز . كان

٢٠٠٥

يماثل باروخ فى العمر ، ولكنه اختار طريقاً مختلفاً ، لا يقلقه سوى لحنه ، لا يريد استـثـمـار شـجـرة سنط فى اسطورة ، ولا تزوره العرافات سرا ليطمئنه بنبوءات ترضيه ، أو ليدفعنه إلى حماقات.

تذكرت ليز نبوءة طفل الشرق ، التفتت إلى مايكل

«هل أخبرك بنبوءة الطفل» .

أومـأ «صـديقتـه العـرافـة جين ديكسـون أكـدت له أنـه ولد عـام ١٩٦٢ .. فى مكان ما من صعيد مصر» .

تابعت ليـز العـجـوز وكـمـانهَ وقـالت «وهل يصـدق بـاروخ هذه المخرفة .. ألهذا اختارك لتتابع أعماله فى الشرق» .

بدا مايكل مثل فأر محاصر ، فاسترسلت ليز تقول :

«لقد اقتربت من باروخ فى ساحات قصوره ومنتجعاته ،

كلما نظر إلى السمـاء تحول إلى طفل تائه ، يحـتـاج من يفك له رموز الكون ، يطمئنه ، يتنبـأ له بالخطر . العـرافات بالنسبـة إليـه مثل حزام أمان .. صفارة انذار .. قرص مهدىء» .

سألها «هل تحبينه» .

سألته «هل حدثك باروخ عنى» .

أجابها بنبرة خافتة «يقول إنك من سلالة المرأة التى أحبها ، لو تزوجها لما احتاج أن يفعل ما يفعله الآن» .

– «ماذا تقصد؟» .

- «ألم يخبرك ، فهو يحتفظ فى قصره فى وايتلى هايتس بجيش من العلماء ، ليستنسخوا له طفلا يحمل جيناته ومن يدرى ربما نجحوا» .

سخرت ليز «هل هى نصيحة العرافات» .

قامت لتنهى اللقاء «مايكل طمئن باروخ .. البيت سيكون فى حوزته قريبا» .

☆☆☆

داخل السيارة الأجرة ، تذكرت ليز باروخ وهو يقص لها نبوءة جين ديكسون ، ضوء غرفتها الذى خفت ، الصوت الغامض الذى سمعته ، حديقة منزلها تختفى ، لتحل محلها صحراء شاسعة ، الطفل الرث الثياب الذى خرج من شعاعات الشمس .

التفت إليها منفعلا وقال «هل رأيت أنه طفل الشرق العظيم ، مختفيا فى مكان ما ، منتظرا اللحظة الحاسمة للظهور ، ليقود معركته الكبيرة ضدنا» .

حاولت ليز تبديد الفكرة من رأسه «ولماذا لم يعلن عن نفسه حتى الآن مادام قد ولد منذ أكثر من ثلاثين عاماً» .

ولكن باروخ كان مستغرقا فى أفكاره وانفعالاته . سره كما قال مايكل أنه يصدق نفسه .. منذ فكر فى استثمار نفايات نيويورك ولوس أنجلوس ، وباقى الولايات الأمريكية وحتى بحثه عن

قصص مـؤثرة ، صالحة للاستثمار .

هو بارع أيضا فى اختيار معاونيه ، حين التقت بمايكل فى قاعة العشاء بالفندق ، لم تتعرف عليه ، رغم لقاءاتهما الكثيرة ، كان من النوع الذى يملك ألف وجه ، ويعطى انطباعات لا تعد عن نفسه .

كانت لا تزال خائفة مما نقله التلفاز ، ولا تفهم ما حدث ، ولماذا يكره بسطاء القاهرة أمريكا .

استقبل مايكل خوفها بابتسامة وبدأ يعلمها فن قلب الموازين «الذين يصرخون فى شوارع القاهرة فرحا ويتوعدون أن يقتلونا جميعا هم مجموعة من الحمقى ..

أما إذا كنت رومانسية وتشفقين على ضحايا البرجين ، فلقد ماتوا ولن يعودوا ..

والسؤال الذى يجب أن تسأليه يا صغيرتى هو ، هل رمادهم يفيد سياستنا ..

لقد شارك الغجر والعجزة والمعاقين اليهود مصيرهم فى أفران الغاز ، ولكن اليهود مصيرهم فى أفان الغاز ، ولكن اليهود فقط أدركوا ، أن رماد ضحاياهم أكثر فائدة من حياتهم» .

توقفت السيارة الأجرة

حين رأت البيت أحست بالأمان ، ترى هل نامت مكية ؟

دخلت وليل القاهرة ينتصف .

الفصل الثالث

قلبى حزين

(١)

تبادلت ليز ويوزوكى الرسائل عبر البريد الألكترونى فى اليومين السابقين .

أخبرته عن روحها التى تبدلت ، وبعث لها متابعات للأحداث ، تصور . ما صارت عليه نيويورك «لقد تحولت إلى مدينة للأشباح . أظن أن من يحكمنا هو آخر من يحتاجه الشعب الأمريكى ، فطوال ساعات هروبه العشر بدا مثل تلميذ خائب ، فوجىء بامتحان يفوق قدراته» .

أرسل إليها صور التقطهالأنقاض البرجين ، دخان أسود ، كلاب مدربة تتشمم أى أثر للحياة بين الأنقاض ، نصف عين مفزوعة ، لسان يتدلى فى بلاهة ، يد ترتعش ، أشلاء ، شوارع خاوية .

بعثت له ليز «يوزوكى هل تعرف اسمى العربى الذى بحثنا عنه

سويا ، أنه حبيبة ، اسم مشتق من الحب ، لماذا لا تكتب فى بداية رسالتك القادمة عزيزتى حبيبة» .

كلمته عن مكية .

«أصابعها شديدة المرونة ، لقد دلكت جسدى فى الصباح بدهانات عطرية، توقفت عند نقط بعينها فوق جبهتى وفى كفى وقدمى ، قالت أنها تحررنى ، وتعطى فرصة للعطور المختلفة كى تتخلل فى مسامى ، أدارت لى تسجيلات لألحان ابتكرتها ، وطلبت منى أن أغمض عينى وأخبرها عن المكان الذى تخيلته ، ولم أستطع ، كانت خيالاتى أروع منق درتى على الوصف ، وفجأة برز لى وجه جيزيل ، هائما ، غير آبه بجنتى ، تملكنى الألم وبكيت ، لم تتوقف مكية واستمرت فى عملها وكلما ضرخت تضغط أكثر ، كأنها تفقأ دمامل روحى . تقول أن الروح ترسل اشارات خفية إلى الجسد ، لا يتعرف عليها إلا خبير فى التدليك مثلها .

على أى حال أشعر بتحسن ، لم أعد الفتاة الفولاذية التى تكتم آهاتها . هل تذكر عشاءنا فى والدور ف أستوريا ، هذه الليلة هى كل ما يعنينى فى نيويورك» .

لم تخبره ليز عن القبلة المجهولة التى تلقتها فى إحدى غرف البيت المظلمة ، بدأ الأمر بأنفسا ساخنة تقترب ، يد طرية تمسك بها ، دوار أفاقت بعده غير واثقة مما حدث .

مكية لم تعر الأمر اهتماما ، كتبت ألوفا من رسائل العشق ، وأوصلت العديد منها ، وليس غريبا أن يحوم داخل البيت أوا ح محبة لا تذكر أصحابها .

«ربما لم تكونى المقصودة بالقبلة» .

أقنعتها أنها قبلة شبح كتبت له رسالة حب ، أو هو حلم الحب تفجر داخلها فجأة .

لو أخبرته ، هل يغار يوزوكى من الشبح ويصارعه .

العيب فيها لم تتمكن من دفعه لمقاتلة شبح أو أى شخص آخر من أجلها، وأن يملأ أحلامها بدلا من الأرواح الشاردة .

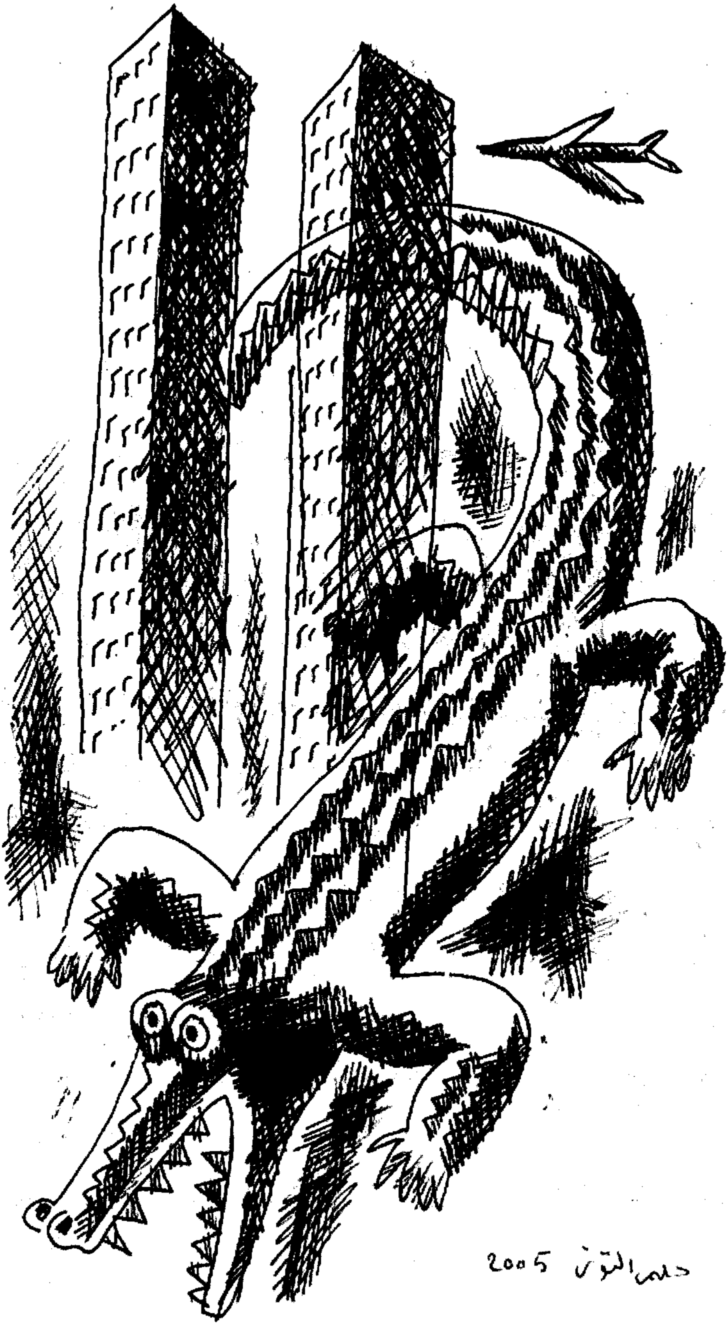
حلمي التوني 2005

(٢)

مر يومان على سقوط برجى مركز التجارة العالمى.

كانت شوارع بروكلن خاوية وكئيبة. صعد يوزوكى السلم، أدار مفتاح بيتهم القديم. دخل وأضاء المصباح، رأى الأشباح التى أخافته سنوات طفولته، تتفادى الضوء وتتفتت.

استوقفته البقع اللونية المتناثرة فوق الحائط، حصائر التاتامى، ستائر الشوجى، الأوراق، أغطية الفراش.

تلك البقعة اللونية ذكرته بالصبى الذى رآه منذ لحظات، جالسا عند أرصفة الميناء المهجورة، يحدق فى الفراغ. وهذه تشبه الفراغ، والتى تلطخ النافذة مثل عينى أمه المشتعلتين وفمها المنفرج فى شهوانية.

استمر يحصى البقع اللونية، ويصنفها كمن يعيد ترتيب صندوق ذكرياته.

أفاق على جرس المحمول. كانت شارميلا هى المتحدث. أخبرته

أنها فى مخبأ محصن تحت الأرض.

واساها ببعض الكلمات، أحيانا كانت الكلمات تختنق قبل أن ينطقها.

أنهى المكالمة دون أن يجعلها تثق فى الحضارة مرة أخرى.

فما حدث فوق تصوراتها. .

كانت حتى الليلة السابقة لانهيار البرجين تنشد الصخب، الألوان، الأموال المكدسة، تفكر فى أنها نجمة مجتمع الرفاهية، وأنها أمريكية أكثر من كونها هندية.

ولكن الأمريكان فى هذه اللحظة ولسنوات قادمة شعب خائف، لا يمكن الاحتماء به،

ألتفت ناحية الباب، رأى أباه خارجا من بقعة لونية، ممسكا بالفرشاة، ولا يحيط نفسه بهالات فضية أو أجنحة نورانية، كما يفعل الأموات العائدون للحياة. اقترب منه بخطوات واثقة، اكتسبها بعد تجربة الانتحار كساموراى أصيل.

سأله بصوت عميق «كيف حالها»

لوح مورى بالفرشاة فى الهواء وبدا وكأنه يرسم وجه شارميلا.

رأها أول مرة أمام أحد الأديرة فى الهند تقفز مثل إلهام. رسمها كما يرسم نقطة ضوء، أو هلاوس حلوة.

ولكنها لم تفهم، اعتبرته قصوراً فى الموهبة.. لماذا لم يرسمها

كما ترى نفسها فتاة جميلة متعطشة للحياة.

أراد مـورى أن يحـتـضن ابنه، ولكنه تراجـع «ناولنى الألوان.. أريد أن أرسم أولا لحظة العناق».

حاول يوزوكى تصور المشهد... أب شبحى يعانق ابن حزين.

«أحضرت لك الألوان يا أبى»

ولكن مورى استدار فى غضب وعاد إلى البقعة اللونية.

«انتظر يا أبى»

ولكن لا إجابة .

(٣)

انهت شارميلا المكالمة مع يوزوكى وانكمشت مكانها.

لو رأتها استر لما عرفتها الأن. التقت بالراهبة على ضفاف نهر الجانج، كانت أول من لمح بنور التمرد فى عينيها. وأخذت على عاتقها منذ ذلك الحين مهمة انقاذها من نفسها، ومن الطاقة المدمرة المختفية داخلها.

لم تهتم استر بهدايتها إلى الرب، فقد أدركت طبيعة شارميلا العنيدة «لن يختار لها أحد.... ستختار هى فى الوقت المناسب».

شرعت تعلمها الإنجليزية، ووجدت المنبوذة الصغيرة نفسها تقرأ وتكتب الأبجدية اللاتينية. لم تكن تعرف أى أبجدية أخرى، فحيث تعيش الحروف ضائعة ولا معنى لها.

قرأت معها الفيدا والمهابهارتا، وأدركت شارميلا طبيعة المستنقع الذي ولدت فيه.

لم تعد تتأقلم مع حياة الزمارين والحواة وجامعى القمامة.

وكانت استر تداوى لها اندفاعات روحها بالخيال «الإنسان لا يغير مصيره دون حلم».

بدأت شارميلا تهمس بتلك الكلمات لأهل طبقتها، وتصف لهم خيالات رأسها، الصور المبهجة، والألوان البراقة التى كانت تزورها وتأخذها من عالم الپاريا المنزوى.

سحرت خيالاتها الرؤوس المطأطئة والنظرات المنكسرة والأقدام المغروسة فى الوحل، وفى يوم قرر هؤلاء المنبوذون أن يعيشوا هذا العالم أو يموتوا.

تجمهروا فى عيد ميلادها السابع عشر وسألوها ماذا تريد.

لم تكن تريد سوى أن يطالبوا بحقهم فى الوجود، والمساواة بباقى الطبقات الذى يكفله القانون.

قامت معارك وسقط قتلى.

طمأنتهم شارميلا «لا يوجد تغيير دون ضحايا».

ولكن الضحايا كانوا يتساقطون حولها ولا شئ يتغير. وفى النهاية انزوى المنبوذون مرة أخرى وعادوا إلى الجحور أكثر يأسا واذعانا.

وحين التقت بمورى، قريبا من الدير حيث كانت تزور استر لتستمد منها القوة، ظنته وهما قادما من خيالها، حتى أفاقت على كابوس حياتهما معا أعلى بناية مهدمة فى بروكلن.

لولا قدرتها على الحلم التى استمدتها من استر، لقضت حياتها مستسلمة إلى قدرها.

ولكنها كافحت وحاولت دفع مورى إلى المكان الذى تريده.

أخذته إلى شارع برودواى المتخم بالرفاهية. سارا إلى جانب أثرى أثرياء الكون، وفى داخلها أمل أن تثير زوجها ليرسم ما يريده الأثرياء..

ولكن دون جدوى، فلم يظهر فى لوحاته، سوى مشردو برودواى المنتشرون مثل بثور وسط البهجة.

كان موت مورى كساموراى شجاع، فرصتها الذهبية لتبدأ خروجها من الشرنقة للأضواء التى ملأت أحلامها.

(٤)

لم تحسم ليز أمرها، هل تذهب إلى الفندق هذه الليلة أيضاً لتستمع الى عازف الكمان. ليلة لقائها بمايكل، كان يدور بكمانه، مثل نحلة توزع شهدها على الجميع.

فى الليلتين التاليتين، استمعت إليه وحدها، كرر لحنه، وفجر داخلها وجعا.

يشبه باروخ فى نحافته وحركاته الخاطفة، وعيناه مليئتان مثله بالأسرار.

كم عمره؟ أعطته أمس وردة بيضاء وسألته. ابتسم، فشعرت أنها أمام طفل.

تجرأ وسألها عن اسمها، بكلمات متاكلة خجلة.

أجابته بعد تردد «أظنه حبيبة»

أطرق كأنما أدرك فجأة غباء سؤاله. الاسماء بالنسبة إليه لافتات، وضعت على الطريق ولا ترشد إلى شئ.

عرفت أنه يسكن أحد العلب الأسمنتية المحيطة بالفندق.

كان الفندق الفخم يبدو مثل نافورة من نور، وضعت فى المكان الخطأ..

أحست بسكان الأزقة التى تطوقه، يتلصصون على رواده فى فزع من بين شقوق النوافذ والجدران. كأنما ينظرون إلى صور دبت فيها الحياة، فتركت أماكنها داخل مجلات الموضة لتجرب الحياة فوق الأرض..

كانوا يعتبرون الفندق الذى يتوسط بؤسهم ظاهرة كونية لايمكن تفسيرها.......... فإذا كان الضوء يغمر العالم، لماذا يعيشون فى ظلمة وعجز.

لم تدر ليز كيف تبعته ولا متى اكتشفها. كانت مشغولة بلحنه الغامض، وتريد أن تعرف لماذا يسلك الطرق الضيقة، المتعرجة بدلا من طرق باروخ والمشاهير والأثرياء.

وحين عرفت أنه يسكن فى ظلمة، ازدادت حيرتها، فلا شك أنه موهوب، ومن الممكن أن يكون ثريا لو أراد، فماذا يمنعه؟

سارا من زقاق إلي أخر دون أن ينقطع بينهما الحديث.

ولكن قصة حبه الغريبة أستحوذت عليها.

حكى «بلغت السبعين ولم أقع فى الحب»

ولكنه اكتشف أنه كان غارقا فيه طوال عمره، فتاة لا يذكر

اسمها ولا ملامحها، استدعوه ليسرى عنها منذ زمن بعيد.

كانت موسيقى متحركة، ألهمته لحنه الوحيد الذى أعجبها.

سافر فى كل انحاء العالم بحثا عن لحن آخر دون جدوى.

لم أكن أنا الموهوب، هى التى ألهمتنى اللحن.

«إذا لم يكن هذا حبا فماذا يكون».

(٥)

كان باروخ يظهر داخل حكايات لى لى، مثل عفريت شقى يحوم مثل قدر حول امرأة لها لون العنبر.

ترقص بجونلة من أصابع الموز المطاطى وشال من الريش الوردى وتتجاوز وضعها كزنجية فى بساطة، فتأتى البيوت من أبوابها الأمامية. وتأخذ مكانها في العربات المخصصة للبيض دون اعتراض من أكثر العنصريين تشددا, لم تتخل عن لغتها التى تشبة مقاطع صوتية أكثر من كونها كلمات.

كانت تسقط كل ما تراه غير ضرورى ومعيق للتواصل فلا حروف جر ولا صفات ولا محسنات لفظية من أى نوع.

لؤلؤة سمراء نادرة التقطها باروخ بعين خبير، كان وقتها واقعا تحت سطوة موسيقى الزنوج يتنقل بين البارات وصالات البلياردو فى نيو أورليانز.

يستمع إلى عازفى البلوز المرتجلين الذين يدقون الأرض بأقدامهم لضبط الايقاع، يبحث بينهم عن مواهب تصلح نواة لشركة الاسطوانات التى قرر إنشائها فى ذلك الوقت، كان استثماراً محفوفاً بالمخاطر، رهاناً على نفايات صوتية ولكنه لم يأبه، أول استثماراته، وأكثرها ربحا هى نفايات نيويورك. أحس تجاه الزجاجات القديمة، العلب الصفيحية، الأوراق البالية بعاطفة قوية كالتى شعر بها تجاه الموسيقى السوداء، برغبة عارمة فى أن يحولها إلى نقود.

رآها ترقص فى أحد البارات مثل تعويذة سحر، أنسته السبب الذي جاء من أجله، النقود، الاستثمارات.

لم يعد يرى سواها، قضى ساعات يشرح لها أوجه الشبه بين اليهود والشعب الأسود، سنوات العبودية والاضطهاد الطويلة.

الشتات والبعد عن الوطن،الحرمان من الحقوق المدنية والاجتماعية.

كانت كلماته تبدو لها مثل هلاوس مخبول فهى لم تعان أبدا من لونها ولم تحاول أبدا استخدام الكريمات المفتحة للبشرة التى كان يعلن عنها فى كل مكان فى مناطق الزنوج ولم تخجل من خصلاتها المدببة التى تشبه فراء قنفد.

كل ما كانت تحلم به هو فرصة للغناء والنجومية فهل يعطيها

لها.

سألته:

«ألست هنا من أجل ذلك هل يعجبك صوتى».

كان صوتها مثل هديل يمامة تائهة.

ثم ماذا ..... أعد لها قفصا ثمينا، ولكنها أرادت الحرية، هربت منه تاركة طفلة تشبه فرخ صغير أسمتها جيزيل.

لم تخبر لى لى أحداً بالتفاصيل كانت تريد أن تكون حكاياتها مثل الحياة، تسمح بالفواصل والتكهنات.

★ ★ ★

كبرت جيزيل بسرعة فى حكاياتها والتقت بفتى أحلامها فى متنزه ماونت موريس فى حى الزنوج بنيويورك كان هناك احتفال، ثلاثة شعراء وعازف كونجا، فهى ذكرى مولد مالكوم أكس المناضل الأسود الذي كافح لينال الشعب الأسود حقوقه ولو بالقوة، تعرفت عليه وسط الصخب عرفت أنه قادم من الشرق ليدرس الطب لنفسى، سألته «هل يعجبك مالكوم أكس ألا يمكن أخذ الحق بالحب بدلا من القوة».

لم يجب وكما سحرها سحرته وتحولا داخل حكايات لى لى إلى بطلين أسطوريين تحيط بهما جنيات يتخفين فى فتحات الأثاث، ساحرات يركبن المكنسة. مؤامرات تحاك خلف الستائر فى غفلة

منهما. ملاعق وأكواب تتحاور بلغة خفية أشرار يخرجن من البالوعات كانت لى لى شديدة الاقناع بجسدها الضخم وأنفها الذي يشبه علامة تعجب ودخان سيجارتها الكثيف ولكن هذا لم يستمر فقد مرضت لى لى وشخص مرضها على أنه الزهامير. بدت كلمة الزهامير لسكان الجانب الخلفى من البيت أشبه بحفرة عميقة وخاصة بعد أن رفع طبيبها الأشعة أمامهم وأشار إلى شق أسود قال إنه يتسع كلما تقدم المرض. لم تتعرف لى لى على أى منهم وفقدت مع الوقت قدرتها على الحكى، فى البداية كانت تنسى أسماء الأبطال ثم تطور الأمر فاختلطت الأدوار وتغيرت النهايات، فصارت جيزيل الجميلة رهينة حظها التعس فلا ساحرة طيبة تحميها من مخاطر الغيب وتخطط لها لنيل المستحيل ولا فتى شرقى يصارع شياطين الانس والجن من أجلها ولم يعد المحبون مسحورون هائمون كمن يتبع قدراً أكبر منه. ومع الوقت كرهت الشخصيات صورتها الجديدة الكئيبة فى حكاياتها فتركوها. سكتت لى لى ولم تعد تدرى بما حولها. كانت الخطوط السوداء داخل الأشعة تتعمق وتزداد أكثر وتحولت ذاكرتها مع الوقت إلى صفحة ممحية. أحيانا كانت تضحك وتبكى دون سبب أو تكلم شخصيات حكاياتها الذين تدفقوا لزيارتها والتسرية عنها، أو لاقناعها كى تعود بهم إلى عالم حكاياتها الساحر، بعد أن فقدوا

هويتهم منذ تركتهم وصاروا شخصيات هامشية مملة فى حكايات الآخرين.

ولكن عقلها كان ينطفئ رغم تلك المظاهرات والمحايلات.

سألت ليز الطبيب يوما :

«متى تعود إلى سابق عهدها».

ولم تتلق منه إجابة سوى نظرات حائرة وكلمات مختصرة حاول بها أن يشرح لها ما يحدث لعقل لى لى مستعينا بالأشعة المقطعية منهيا كلامه أن ما تحتاجه هو الحب والرعاية.أما المرض فمازال غامضاً ولكن العلم يتقدم كل يوم

«ثقى فى العلم»

استحوذت الحكاية على مكية فسألت حفيدتها :

«وكيف حال لى لى الأن»

أجابت حبيبة بعد صمت :

«لقد ماتت»

(٦)

البداية كما قال باروخ، أحد اليهود المتخفين يدعى بيتر، تعرف عليه عبدالرحمن فى إحدى جولاته حول العالم بوصفه معالجاً بالروائح.

زار بيتر عبدالرحمن فى شتاء ١٩١٧ ليطلعه على أحدث اكتشافاته فى هذا المجال.

كان عبدالرحمن يؤمن بجدوى العلاجات البديلة، ولا يرفضها كما فعل زملاؤه الحداثيون، الدارسون للطب الغربى، والذين اعتبروها إرثا متخلفا يجب التخلص منه.

فبعد حفل افتتاح القناة استأذن عبدالرحمن الخديو فى السفر، معتذرا عن منصب كبير أطبائه قائلا:

«مازلت أجهل الكثير»

قضى سنواته التالية فى جولات حول العالم.

تعلم من تشامانات القبائل الأفريقية كيفِ يخيط جرحاً بفكى نملة. استمع للنساك الذين كرسوا حياتهم لدراسة الاعشاب المختلفة، وأثرها العلاجى.

زار أماكن لا تخطر على بال. احتك بآكلى لحوم بشر، ومخابيل، وزهاد، وجبابرة...... حكام ومحكومين. ولكن تجاربه لم تفقده البراءة، فلم يتمكن من تفسير بديهيات مثل.... لماذا يكذب إنسان ويخفى حقيقته؟

ولذلك لم يكتشف بيتر ولم يشك فى أنه يهودى، مادام يقول إنه بروتستانتى.... يداوم على زيارة الكنيسة. أو أنه منضم سرا إلى منظمة صهيونية، فما الداعى للعمل فى الظلام.

كان يترك بيتر يتجول فى القاهرة وحده، بغرض اكتشاف روائح المدينة الموحية، دون أن يخطر له أنه يبعث تقارير مطولة لمنظمته كتبها بالحبر السرى، عن شجرة السنط التى تتوسط حديقته. كان يفسر توقفه غير المبرر أمامها على أنه نوبة الهام مفاجئة توحى له بعطر جديد.

تلقى بيتر الرد :

«الفكرة مدهشة ولكن لابد من المعاينة».

وبحجة دراسة الوصفات الطبية المدونة فى التلمود ، توالت زيارة الحاخات لعبد الرحمن، نمكن أحدهم من التقاط صور

للشجرة.

سألت ليز «من قال إن الشجرة هى عصا النبى موسى» .

أجابها باروخ «يكفى أننا نقول» .

توافقه ليز «عم يكفى» .

أكتشفت مؤخرا أها لم تكن يهويدة أبداً ، كانت وثنية ، صنعت لباروخ تمثالا تحج إليه وتقدم أحلامها ، حقها فى الحب والحياة قرابين .

لقد سئمت ..... لن تماثيب ، لن تحج إلى زيف ، لن تكون صدى صوته المبحوح .

حين طلبته فى يومها الأول فى القاهرة ، لتخبره بأنجازها المدهش ، البيت الذى سعوا إليه أكثر من ثمانين عاما ملكا لها .

سزلها «ا الجديد لا وقت لدى» .

أجابته «جدى أفتقدك .... هل أنت بخير» .

فكر «رومانسية فارغة .... يمكن أن تفسد كل شيء» .

لابد أن يحميها من أى جين ورثته من أمها ، يمكن أن يترجم فجأة إلى ضعف .

طلب منها لقاء مايكل ممثلة فى القاهرة «أنت تعرفينه» تشاورى معه» .

أغلقت المحمول هى لا تصدق أنها لم تخبره بحصولها الفعلى

على البيت .

لم تتمكن من تفسير ما حدث .

ألأنها صارت نصفين حبيبة وليز .

من تريد أن تكون ؟ .

سألت مكية . تنهدت الجدة العجوز وقالت «لدى كلمة أخيرة» .

(٧)

ماتت مكية عند الفجر ، بدا الأمر مدهشاً ومفاجئا بالنسبة لحبيبة . لماذا ماتت الآن وهى تسألها عن أبويها . مالم تستطع مكية قوله سجلته فى رسالة غير معروف بالتحديد وقت كتابتها ، سلمتها إلى حفيدتها حين أحست بالنهاية .

«معذرة الكتابة مرتعشة ..... ماذا تتوقعين من امرأة جاوزت المائة» .

فكرت حبيبة فى عازف الكمات ، طلبته على الفور ، جاءها صوته مثل صفير ريح ، لم تكن واثقة أنه سوف يتذكرها .

«ماتت مكية» .

أجابها «حبيبة لا تخافى ، أنا قادم إليك» .

راجعا العنوان فى ثوان ، أنهت المكالمة دون أن تسأل نفسها كيف وثقت فى شخص لم تره سوى مرات معدودة .... لقد تغيرت

كثيرا .

قرأت الرسالة ، كانت مكية تعرف قصة البيت وباروخ . أسطورة عصا موسى التى تحولت إلى شجرة سنط ، حكت لها جيزيل كل شىء ولكن ما الذى حدث لعلى وكيف فقدت جيزيل عقلها ، كتبت «هذه أسئلة أكبر منى ، فلم أعش سوى سنوات قليلة بعد المائة ، هناك حقائق تضيع خمسمائة عام وأخرى تضيع إلى الأبد» .

أخبرتها عن البيوت التى يملكها عبدالرحمن بامتداد مصر ، وضحت أمكانها بدوائر حمراء فوق خريطة شبكتها إلى الرسالة بدبوس صغير .

«فى كل بيت كومة من الرسائل تحمب أحلاما وشكايات من قابلت ، بعضها رسائل حب ، وبعضها كتبتها لأحفاد تخيتهم ، لم يمهل القدر (على) ليقرأ أى منها لكنها أتداد (على) وامتدادى وأرجو أن تقرعيها يوما» .

التفتت حبيبة لتجد عازف الكمان العجوز يتابعها فى حنان .

بادرها قائلا : «الباب الخارجى مفتوح ....» .

أجابته «ليس سهوا ..... أرادته مكية مفتوح .....» .

«ماذا تقرأين» .

«رسالة أخيرة من جدتى ... تريدنى أن أقوم برحلة بامتداد

مـصـر ، لأتـعـرف على إرثى من البـيـوت ، وأقـرأ الرسـائل التى كتبتها».

كـان مـعـها حـتى تمت مـراسم الدفن، وكـانت تشكو له بكلمـات قليلة مثل «أشعر أن قلبى حزين».

أو

«هل تعرف أنها ستكون رحلة مدخشة، أنا وأنت ويوزوكى...»

ثم عادت تقول : «لا أظن أن يوزوكى سيرافقنا، بعث الىّ رسالة بالبريد الألكترونى وأخبرنى أنـه يعد نفسه لرحلة أخرى الى قريته الصغيرة فى اليابان....» .

كـررت طلبـهـا : «هل سـتـرافـقـنى.... قلبى لن يحـتـمل الرحلة وحده».

كان عازف الكمان العجوز شاردا منذ دخوله البيت ، كأنه على وشك الإمساك بخيوط الإلهام.

«أظنه لحن جديد... من يدرى!».

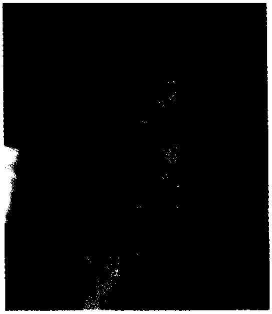

منال القاضى

- طبيبة تعمل فى مجال الطب النفسى والعصبى.
- نشرت أعمالها العديد من الدوريات المصرية والعربية منها العربى الكويتية ، الأهرام ، الحياة اللندنية ، حواء ، نصف الدنيا ، الجمهورية ، المساء ، أخبار الأدب وغيرها .....
- صدر لها
* يحدث أحيانا ...... (مجموعة قصصية) ..... دار الأمين (١٩٩٨).
* العين السحرية (مجموعة قصصية) ..... مركز الكتاب للنشر (٢٠٠٠).
* لا ظل ولا صدى (رواية) .... مكتبة مدبولى (٢٠٠٢).
* نقط فوق الحروف (حوارات سياسية) ...... مركز الكتاب للنشر (٢٠٠٣)

هذه الرواية

نحى المدير البدين الصور كلها إلا تلك التى تصور مركز التجارة العالمى والظل : «هل كان لرجل أم امرأة ؟»

بوغت يوزوكى بالسؤال ، فهو لم يتبين صاحب الظل أبداً

«أكد له المدير أنها امرأة تقاوم لسعة برد أو قرصة جوع ، مستشهداً بتكوين العظام ، درجة الانحناءة وهاجس داخلى لا يخطئه.

«كانت لقطة وحشية .. فاضحة .. تصور نيويورك الحقيقية التى يخشى زبائنه من رؤيتها . اعتبر أمسية العاشقين رشوة لضميره ، الذى آله كأنه بذلك يعتذر لكل الظلال المحدقة بحقد وحرمان فى المبانى الأسمنتية العالية».

«يا قلبي لا تحزن»